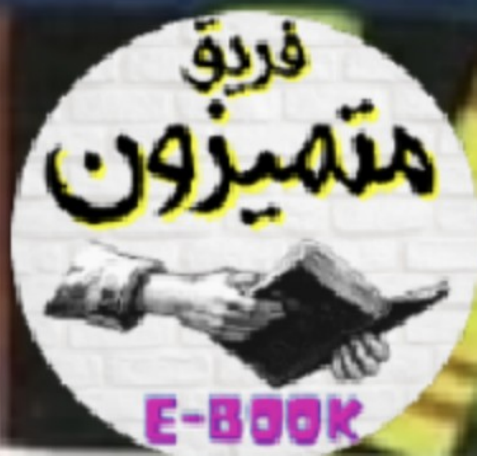


عبد الوهاب مطاوع

من المفكرة الزرقاء



الدار المصرية اللبنانية

مكتبة فريق متميزون

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب النادر:



كلمة مهمة:

هذا العمل (تحويل كتاب: من المُفكِّرة الزرقاء.. للكاتب عبدالوهاب مطاوع الي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

كتب مجموعة لمقالات الراحل

عبد الوهاب مطاوع

من المُفكِّرة الزرقاء

عبد الوهاب مطاوع



(اَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ)

صدق الله العظيم

مقدمة الكتاب..

«من المفكرة الزرقاء» عنوان مقال أسبوعي ظللتُ أكتبه بانتظام في مجلة «زهرة الخليج» التي تصدر في أبي ظبي لحوالي عشر سنوات وحين استجبت لدعوة هذه المجلة لكتابة مقال أسبوعي فيها، جلست أفكر في العنوان الثابت الذي اتخذته له.. وكان مفهوماً لديّ أنني سأخصصه غالباً للكتابة في موضوعات المرأة والحب والزواج، نظراً لتخصص المجلة في شؤون المرأة، فشغلت قبل الشروع في الكتابة في جمع بعض المواد الأدبية عن المرأة والحب.. وسجلتها مع خواطري المتعلقة بها في مفكرة لكي أستعين بها في اختيار موضوعات المقالات.. وكتبت مقالي الأول الذي سأبعث به للمجلة.. وتوقفت أمام العنوان الثابت الذي ينبغي له أن يندرج تحته كل أسبوع، وطال تفكيري في اختياره.. إلى أن وقعت عيني على المفكرة التي استعنت ببعض موادها في كتابة ذلك المقال الأول.. فلمعت الفكرة في ذهني وتساءلت: لم لا يكون عنوان المقال مرتبطاً بهذه المفكرة الزرقاء التي استعنت بها في كتابته وسأسجل فيها من الآن كل ما يعنّ لي من خواطر عن الحب والمرأة والزواج؟

وهكذا وُلد مقالي الأسبوعي لمجلة زهرة الخليج، وحرصت على الاستمرار في كتابته بالرغم من ضيق الوقت وكثرة الأعباء لأنه كان يتيح لي مجالاً أوسع للتعبير الأدبي عن نفسي، بأكثر مما أتحتة أنا لقلمي في مقالي الشهري بمجلة الشباب «نهر الحياة»، حيث حددت خطة العام بأن يكون مرتبطاً بقدر الإمكان بأفكار الشباب وقضاياهم، أو في بابي الأسبوعي «بريد الجمعة» الذي تحكم كتاباتي فيه نوعية المشاكل الإنسانية التي يعرضها.

إلى أن عجزت عن ملاحقة مواعده الأسبوعي بسبب كثرة المسؤوليات ووهن الإرادة. وتكررت مرات اعتذاري القهري عن الكتابة. ثم سلمت في النهاية بعجزني عن مواصلته إلى جانب ما أقوم به من أعمال بالأهرام ومجلة الشباب، فاعتذرت أسفاً عن عدم مواصلة، واكتفيت بما كتبت فيه خلال هذه السنوات الجميلة، واعترفت له بفضلته الكبير على إنتاجي الأدبي خلال تلك السنوات، إذ اضطرني راضياً أو راغماً على الكتابة الأدبية في موعد محدد من كل أسبوع مهما كانت الأعباء.. وأثمر هذا الالتزام شبه القهري عدداً كبيراً من المقالات أصدرتها تباعاً في عدة كتب فيما بعد..

وها أنا أقدم لك هذه المجموعة الأخيرة منها.. فلا أجد لكتابي هذا عنواناً أكثر ملاءمة له من اسم هذا المقال الأسبوعي نفسه تحية له، وقد انتهى دوره للأسف في حياتي الأدبية. وعرفانا بفضلته في إصداري لعدد من الكتب لم أكن لأصدرها، لولا أن التزمت بهذا المقال و«جاهدت» كثيراً لكي أوصل كتابته طوال عشر سنوات.

عبد الوهاب مطاوع

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قطار السعادة

اتصلت بي تطلب موعدا لاستشارتي في أمر هام يتعلق بحياتها ومستقبلها. دخلت إلى مكثبي متردداً وبدأت تروي لي أنها تواجه موقف اختيار دقيق عجزت فيه عن اتخاذ القرار السليم وترغب في أن أعينها على اتخاذه.

إنها فتاة من أسرة عادية، أنهت دراستها وتعمل منذ فترة بأحد المكاتب التجارية انتظارا لفرصة أفضل. وقد ارتبطت منذ عامها الجامعي الثالث بزميل لها من أسرة مماثلة لأسرتها في الظروف الاجتماعية.. أحبها وأحبته ويعمل في شركة خاصة.. ويتدفق حماسا ونشاطا ورغبة في تحقيق أحلامه.. فراح يعمل أي عمل يتاح بعد الظهر، فعمل في البداية في محطة بنزين لفترة.. ثم مدرسا في مدرسة ليلية بالحصّة.. ثم أقدم على خطوة جريئة، فاشترى بأول مبلغ توفر له مكنستين كهربائيتين كبيرتين وأعلن لأسرته وأقاربه ومعارفه ولزملائه في الشركة أنه قد كون «شركة نظافة»، صغيرة، وأنه على استعداد للقيام بأعمال تنظيف البيوت والشركات بأسعار معتدلة لمن يريد!

وجمع عددا من أصدقائه وزملائه وجيرانه وراح يصحب فرقة للنظافة من شقة إلى شقة ويكسب دخلا محترما ويعطي معاونيه أجورهم بعدل وسخاء وهي تشجعه وتبارك خطواته. وتقدم فتاها لأسرتها طالبا يدها، وأعجبت الأسرة بشخصيته وكفاحه وإن لم تتحمس له كثيرا لأن مشواره طويل ولم يحصل على شقة بعد ولم ييأس الفتى الطموح ولم تهتز ثقته في نفسه. وإنما أخرج «أجندته» وراح يراجعها ويجري حساباته ويحسب متوسط دخله ويضرب ويجمع، ثم قال لوالد فتاته إنه سيحصل على الشقة وسيوفي بكل التزاماته على أكمل وجه خلال 3 سنوات من الآن ولا يطلب منهم شيئا سوى الصبر والتشجيع. ولم يسد الأب أبواب الأمل في وجهه وإنما طالبه بمزيد من الجهد لتحقيق أحلامه، وبادخار كل ما يستطيع وتوجيهه لمشروع الشقة. ووعده الشاب بذلك، وانطلق يصل الليل بالنهار في عمل مستمر وفتاته وأسرتها سعداء به..

ولكن المشوار ما زال طويلا.. والأب عاجز تماما عن المساهمة في زواج ابنته بأي مساهمة جدية ومسؤولياته العائلية كثيرة وكبيرة، فله بعد ابنته ثلاثة من الأبناء ما زالوا في مراحل التعليم ولا مورد له سوى مرتبه.. والأم مريضة وعلاجها يستنزف بعض ميزانية الأسرة المرهقة.. ومرتب الفتاة يستهلك في البيت ولم تدخر منه إلا أقل القليل، والنفس في لحظات ضعفها قد تضيق أحيانا بظروفها وتتساءل: إلى متى يستمر هذا الحرمان؟

وفي إحدى لحظات الضعف التي انتابت الفتاة تراءى لها حلم يعدها بحل كل المشاكل بلا عناء ولا صبر طويل ولا كفاح.. إن صاحب المكتب الذي تعمل به في الخامسة والخمسين من عمره وزوج وأب لثلاثة أبناء أصغرهم في الثانوية العامة، وهو معجب بها ويراودها على أن يتزوجها زواجا سريرا ويقدم لها شقة جاهزة بكل ما تحلم به ومهرا سخيا وشبكة ماسية فاخرة ويستمر في صرف

مرتبها بعد الزواج بلا عمل لتساعد به أسرته.. وقد رفضت الفكرة في البداية واعتذرت لصاحب العمل بأدب وعرضت أن تستقيل قبل أن يفصلها، فتقبل رفضها بروح رياضية وطالبها بالاستمرار في عملها وعاملها بعد ذلك باحترام ولم يضغط عليها لقبوله، لكنه بدا حزيناً ساهما منكسر النظرات. وبدأت تحس بأنها قد آلمته وجرحت مشاعره..

وتراجع نفسها.. وفي هذه الفترة وجدت نفسها تستخف بمشروع خطيبها وبحماسة وتميل إلى انتقاد تصرفاته وملابسه وانشغاله الدائم بفرقة النظافة!.. ثم بدأت تلتفت إلى أشياء لم تكن تستوقفها من قبل، فبدأت تتحدث عن مساحة الشقة التي ينبغي أن تعيش فيها.. وموقعها.. ونوع أثاثها.. وبدأت تضيق بركوب الميني باص وسيارة الأجرة مع أشخاص آخرين، وتستمع باهتمام جديد عليها إلى حديث صاحب المكتب عن الفيلا التي يملكها على البحيرات المرة بفايد.. والشقة الجميلة بالمعمورة.. وأغمضت عينيها ذات مرة وهو يحدثها عنهما وقالت لنفسها: ما أجمل الحياة بلا كفاح ولا عناء!

وإزداد ضعفها وإزداد ضيقها بخطيبها فبدأت تفتعل معه الخلافات والمشاجرات.. وأحس هو بالخطر وعالج الموقف بحكمة فصارح أباهما بأن ابنته تتعرض لإغراء لن تتحملة طويلاً، وطالبه بمنعها عن العمل بهذا المكتب وعرض تشغيلها في شركة يقوم لها بأعمال النظافة. وفتح الأب ابنته فثارت ثورة هائلة على خطيبها وامتنعت عن مقابلته، وتقبل ثورتها بهدوء وهو يؤكد لها إنه إنما يحميها بذلك من ضعفها.. وسيصبر عليها إلى أن تعود إلى رشدها.

وبلغت قصتها مفترق الطرق ولحظة اختيار الطريق الذي تتجه إليه سريعاً.. فلقد أحس صاحب العمل بتردها وضعفها فضاعف من إغرائه لها، وأشفق عليها زميل قديم بالمكتب مما تعانیه فروى لها قصة زميلة سابقة بنفس المكتب تزوجت صاحبه سرا واستمر زواجهما أربع سنوات، إلى أن اكتشفته زوجته وأرغمته على طلاقها فطلقها، وانتهت قصتها بتغيير جوهرى في روحها وبلقب مطلقة وبعض المجوهرات وتعويض مالي غير كبير، أما الشقة فقد استردتها الزوجة الأولى واحتجزتها لابنها البكر.. وواجهته بما عرفت فبكى ووعدها بأن يشتري لها شقة باسمها وأن يؤمن مستقبلها واشتدت حيرتها، واستشعر خطيبها خطورة الموقف فوضعها أمام اختيار نهائي بين ترك هذا العمل أو فسخ الخطبة بعد أن صبر عليها طويلاً.. وهي كما قالت تحب خطيبها.. لكنها تخاف من المستقبل، ومن ناحية أخرى تحلم بالحياة اللذيذة مع صاحب المكتب وتتصور أنها بذلك سوف ترفع عنها عن أسرته وربما يسرت لهم حياتهم لكنها تخشى الخيبة والتعاسة وافتقاد الحب.. وتسالني ماذا أفعل.. ومن أختار؟

وسمعت قصتها باهتمام ثم قلت لها:

نبدأ من البداية.. أما تصورك إنك بذلك سوف ترفعين عنك عن أسرتك وتيسرين لها بعض أمور حياتها بزواجك ممن يكبرك بثلاثين عاماً ومتزوج وله أبناء في مثل سنك.. فهو وهم يحاول كل من يقدم على عمل من هذا النوع أن «يجمل» به

دوافعه غير العاطفية وغير السوية للإقدام عليه، فكل فتاة تزوجت زواجا مصلحيا وضحت بالحب والإخلاص في سبيله إنما فعلت ذلك غالبا لإرضاء طموحاتها المادية هي أولا وليس لحل مشاكل أسرتها كما تحاول أن تقنع نفسها لتبدو أمام نفسها كشهيدة لظروفها بدلا من أن تواجه الحقيقة وتعترف لنفسها بأنها قد تخلت عن حبها ورومانسيتها طلبا للحياة الأفضل أو نكوصا عن الصبر والكفاح. وظروف أسرتك في النهاية عادية كظروف الملايين من أمثالها.. وأسرتك لم تطالبك ولن تطالبك بأي تضحية من هذا النوع ولن تسعد بشقائك ولا بزواجك المحكوم عليه بالتعاسة والفشل بعد حين، و90% أو أكثر ممن تزوجن بهذا الدافع الوهمي انتهى بهن الحال إلى الشقاء.. والفشل.. وربما الانحراف، ولم تستفد أسرهن من تضحياتهن شيئا.. بل وربما فقدت هذه الأسر نفسها عطف بناتهن لأنهن كلما اشتدت بهن التعاسة في زواجهن حملن أسرهن مسؤولية شقائهن!

وتوقفت قليلا ثم سألتها: هل قرأت قصة «قلادة أنا» لأنطون تشيكوف؟ فهزت رأسها نفيا، فقلت لها إنها تكاد تماثل قصتك، فلقد تزوجت شخصا بغيا يكرها بثلاثين عاما بنفس الحجة، فاهتزت بعد قليل كل قيمها الأخلاقية وبهرتها أضواء الحياة اللامعة في المجتمع الذي انضمت إليه.. فانتهدت سريعا إلى الابتذال والضياع..

وأهم من ذلك أنها فقدت احترامها لأسرتها التي تصورت أنها تضحى بنفسها من أجلها.. وفقدت عطفها عليها واكتشفت أن أسرتها تعيش كما كانت تعيش قبل زواجها وأنها خسرت نفسها.. ولم تكسب الأسرة شيئا سوى احتقار ابنتها!

وصمت قليلا ثم قلت لها: هذا من ناحية المبدأ.. ثم ننتقل بعد ذلك إلى التفاصيل، إنك كما عرفت منك تحبين خطيبك.. وقد تعرض حبك له لوعكة أصابته بالضعف لكنها لم تقتله بعد، ولن تقتله حتى ولو تزوجت صاحب المكتب هذا.. وسيظل ناراً هادئة تحت الرماد تنتظر اللحظة المناسبة لتظل من جديد وخاصة حين تزهدين سريعا متع الحياة التي تحلمين بها.. والحب كجسم الإنسان إذا كان قويا صمد لغزوات الجراثيم التي تتسلل إليه واستنفر جهاز مناعته لإفراز مواد مضادة تقتل هذه الجراثيم وتطردها خارجه وإذا أصيب بوعكة كالأنفلونزا المادية التي أصابتك ضعفت مناعته وتمكنت منه الميكروبات فازداد اعتلالا.

وإذا أردت أن تعيش حياة طبيعية بلحظات سعادتها.. ولحظات عنانها.. فعالجي ضعفك.. واستعيدي مناعتك واختاري من اختاره قلبك وعقلك وارتبطت به ويحبك بإخلاص منذ سنوات.. أما إذا أردت أن تعيش حياة مضطربة قلقة تكسبين فيها بعض المزايا المادية وتخسرين سعادة الروح واطمنان القلب إلى الأبد فاختراري لقب الزوجة السرية لصاحب العمل!

ونكست الفتاة رأسها واستغرقت في تفكير عميق ثم قالت لي بانكسار: أعالج ضعفي؟

وأجبتها باسماء: بجرعة مناسبة من المضادات الرومانسية تعادل ما تسرب إلى صدرك من جراثيم التفكير النفعي المصلحي الذي يغفل حسابات القلب ويتنكر

للمشاعر ويقود صاحبه غالبا إلى المهالك أتعرفين ما هي الرومانسية؟ إن تعريفها العلمي هو أنها نزعة في جميع فروع الفن تتميز بالعودة للطبيعة وإيثار الحس والعاطفة على العقل والمنطق، وهي في الفن تهتم بالجانب الروحي والعاطفي على حساب قيود الشكل.. والرومانسيون في الأدب يؤمنون بما قاله جان جاك روسو من أن الإنسان خير بطبعه لكن المجتمع هو الذي يفسده ونحن على أية حال لا نريد لأحد أن يتجاهل العقل والمنطق في حياته لكننا لا نريد لأحد أيضا أن يمضي في الحياة مجردا من كل اعتبار للعاطفة والمشاعر والجانب الروحي منها، ونؤمن بأن الإنسان قد يفسد نفسه أيضا بالفكر الفاسد والمبررات المضللة.. والحسابات النفعية المجردة.. فيتحول إلى صخرة جرداء لا تعرف أبدا معنى السعادة الحقيقية. ومن المؤسف أننا في هذا العصر قد أصبحنا في حاجة إلى جرعة ملائمة من الرومانسية تعيد الاعتبار للعاطفة والمشاعر ولا تسقطهما من حسابات أي إنسان خلال استغراقه في بحر الهموم المادية. بل إن الإنسان يستطيع إذا أراد أن يوفق بين الأمرين، وقصتك خير نموذج لذلك.. فخطيبك شاب جاد ومكافح وواعد بكل خير، ومن الممكن جدا أن يحقق لك أحلامك المشروعة في الحياة الكريمة إذا صبرت عليه وساندت كفاحه ولم تخذليه. إنك ستعيشين الحياة اللائقة التي تحلمين بها ولكن بعد كفاح قد يستمر 10 أو 15 سنة.. ثم تجيء الراحة بعد العناء.. وحين تجيء ستصبح هي جائزة الحياة لك على إخلاصك وصمودك في وجه الإغراءات وتمسكك بقيمك وأخلاقك وحبك وأحلامك.. ومأساة البعض هي أنهم يريدون أن يبدأوا الرحلة من نهايتها وليس من بدايتها كما يقضي بذلك العقل والمنطق اللذان يتمسحان بهما، فالحياة قطار يمر في رحلته بمحطات متتالية من الصبر والكفاح والشقاء والتجربة والاختبار، ثم يصل في النهاية إلى محطة تحقيق الأحلام. فلا تتعجلي الخطوات.. فما دام قطارك يمضي على الطريق فسوف يصل إلى غايته في الوقت المناسب.. أما القفز منه فلا عاقبة له إلا الانتحار.. والضياع.. وفقدان السعادة واحترام الذات.

ولاحظت فجأة أن دموعها قد سالت بغزارة فتوقفت عن الكلام لحظات ثم قلت مهونا عليها الأمر: إننا نحتاج إلى قوة الحلم والخيال في حياتنا لتعيننا على احتمال صعوبات الطريق وليس لكي تدفعنا إلى تنكب الطريق والسقوط في الهاوية.. ومن حقك بكل تأكيد أن تحلمي لنفسك بكل طيبات الحياة.. ولكن بالطريق المشروع والطبيعي لك.. فاستعيني بهذا الحلم على عناء الرحلة ولا تقفزي من نافذة القطار معرضة نفسك للهلاك والضياع.

وأطرقت الفتاة طويلا وأجهشت بالبكاء، فأحسست بأن دموعها هي دموع التطهر التي تغسل بها ما طرأ على روحها الطيبة من تغير عارض وضعف عابر. ثم هزت رأسها بعنف كأنما تطرد منها وساوسها وهواجسها ثم قالت بتصميم: سأركب القطار حتى النهاية ولو ظللت أترقب محطة الوصول حتى نهاية العمر.. ولن أبيع نفسي لأحد ولن أكون إلا لمن أحبه ويحبني.

وشعرت بارتياح عميق... فاقترحت عليها أن تسارع بإبلاغ خطيبها موافقتها على ترك العمل بالمكتب والانتقال إلى الشركة التي يعرضها عليها، وأن تتعجل عقد

قرانها في أقرب وقت. فابتسمت من بين دموعها لأول مرة منذ زارتنني ثم قالت:
ولم لا تبلغه أنت بذلك؟.. إنه ينتظرنني خارج مكتبك! ودعوته وأبلغته بما انتهت
إليه خطيبته، وطلبت منهما دعوتي لعقد قرانهما القريب، فوعداني شاكرين
وانصرفا.. ونسيتهما في زحام الحياة والمشاكل عدة شهور، إلى أن تذكرتهما
فجأة منذ أيام حين تلقيت بطاقة دعوة جميلة تدعوني لحضور قرآن صاحب شركة
«.....» للنظافة على سليلة المجد والشرف... «نائب» رئيس شركة «.....»
للنظافة.

ولم تستلقت الدعوة انتباهي في البداية.. ثم رأيت في البطاقة الداخلية رسما بخط
اليد لقلب كبير بداخله مكنسة كهربائية! وكلمة تقول: لكي نتذكرنا! فتذكرتهما..
وضحكت كثيرا وسعدت أكثر.. وفهمت من البطاقة أنها قد استقالت من عملها
وتفرغت للعمل مع خطيبها في شركته الصغيرة للنظافة.. واسترحت إلى أنهما
يسيران في الاتجاه الصحيح وأن قطارهما يمضي بقوة على طريق السعادة
والنجاح إن شاء الله.



أجر وراء سعادتك

هما شقيقان من أب واحد وأم واحدة، لكن شتان ما بين الشخصيتين في كل شيء، فكأنهما وجهان مختلفان لقطعة من النقود المعدنية.. أحدهما يحمل لمسة الفن الجميلة في الصورة المميزة للعملة، والآخر لا يحمل إلا البيانات الجافة عن قيمة العملة وتاريخ إصدارها واسم الدولة المصدرة!

وهكذا كانا أيضا في الحياة، لا يعرف أحدهما منها إلا الجانب اللامع المبهج الذي يطلب المتعة ولمسة الفن والجمال في كل شيء، ولا يعرف الآخر من الحياة إلا الأرقام الجافة، والمعاملات الجامدة وصراعات الحيتان في غابة المال والأعمال.

وكل منهما مشغول بدياه وشواغله عن الآخر، لا يلتقيان إلا في المناسبات العائلية الضرورية والحفلات الباذخة التي تقيمها الأسرة في مقرها العريق من حين لآخر للاعتبارات الاجتماعية. وحتى حين يلتقيان في هذه الحفلات التي تحرص عليها أمهما الثرية قوية الشخصية، فإن كلا منهما يطلب فيها شيئا مختلفا عن الآخر فالشقيق الأكبر العابس دائما - والذي حمل بعد أبيه عبء إدارة إمبراطوريته المالية وانفرد بمسؤوليتها دون أخيه اللاهي العابث لا يرى في هذه الحفلات إلا فرصة لتقوية علاقات العمل والاتفاق على صفقة جديدة، أو تقصي أخبار سوق المال والأعمال من ضيوفه المهمين.

أما الشقيق الأصغر الوسيم فلم يكن يرى في هذه الحفلات إلا فرصة للتعرف على الجميلات اللاتي يحضرنها، فيروح يتنقل بين الحاضرين يوزع ابتسامته وجاذبيته على الجميع، ويخص أجمل المدعوات باهتمامه، فينتهي الأمر غالبا بأن يكتسب ودها، وتبدأ علاقة غرامية جديدة في حياته.

والأسرة سعيدة بحياتها، فالأم تزهر بثرانها وعلاقاتها المتينة بمجتمع الصفوة، وبنبوغ ابنها الأكبر الذي ضاعف ثروة أبيه خلال سنوات معدودة، وتزهو كذلك باتحاد الرؤية بينهما في مجال المال والأعمال، فكلاهما يعرف عن نفسه أنه «ذئب» لا يتردد في الانقضاض على الفريسة في الوقت المناسب، واقتناص مشروعها التجاري بأبخس الأثمان، ثم لا يتوقف بعد ذلك لحظة أمام اعتبارات الشفقة أو التعاطف مع الضحية.. ولذلك فالعمل عندهما «حرب» بين طرفين لا ينتصر فيها إلا الأقوى والأكثر ثراء.

والابن الأصغر سعيد أيضا بحياته وعلاقاته وسهراته ومغامراته، فلقد عرف منذ وفاة أبيه أن أخاه الأكبر لن يدع له فرصة ملائمة للقيام بدور حقيقي في إدارة أموال الأسرة، فانسحب من المنافسة بهدوء وبلا مرارات، وصادف ذلك هوى في شخصيته الراغبة في الاستمتاع بكل مباحج الحياة، فلم يندم على انعدام الدور، واكتفى بجني الثمار الحلوة، و «الأسى» لشقيقه الذي لا يعرف من الحياة إلا وجهها الجاف وكلما التقى الشقيقان في الصباح، لام الشقيق الأكبر شقيقه على انصرافه لحياة اللهو، حتى إنه لم يدخل مكتبه في مقر إدارة الشركة العملاقة منذ سنوات ولا يعرف حتى أين يقع هذا المكتب، ولأم الشقيق الأصغر أخاه على

انصرافه النهائي عن كل مباحج الحياة واستغراقه الكامل في دنيا الأعمال والأموال والأرقام.

والحب في قلب الأم لكلا الشقيقتين عميق وغائر، وإن مالت بطبيعتها العملية إلى تأييد خطة الابن الأكبر في الحياة.

لكن عينا أخرى كانت ترقب حياة هذه الأسرة عن قرب وتعيش شواغلها ومشاكلها بقلب يضطرم بالحب الأسر لأحد أفرادها.. إنها هذه الفتاة الصغيرة الجميلة ابنة سائق سيارة الأسرة التي تعيش مع أبيها الأرملة فوق جراج البيت، وتتبتل في حب الابن الأصغر منذ كانت طفلة صغيرة، وتقضي الساعات ترقبه عن بعد وتتأمل تصرفاته وعلاقاته، وتتابع أخباره بحب خفي صامت.. فإذا صادفها في الحديقة حياها بلطفه المعهود مع الجميع، فتضطرب ضربات قلبها حتى لتكاد تعجز عن النطق!

أما أبوها فقد كان يرقب حالها في فهم وإشفاق عليها، وينبهها من حين لآخر إلى أنه ليس من الحكمة أن تقضي حياتها في مراقبة ابن الأسرة المدلل واستراق النظر المحروم إليه، ويذكرها دائما بأنها تطلب المستحيل لأنه لا يشعر بها، وهيهات أن يفعل وهو نجم الأسرة اللامع الذي تتهافت بنات أصحاب الملايين عليه.. والابنة الجميلة تفهم، وتعرف، وتسلم بكل ما يقوله لها أبوها، لكن ماذا عساها أن تفعل وهي عاجزة عن السيطرة على عواطفها ومشاعرها التي لم تحمل حبا لإنسان سوى لهذا الفتى الرائع!؟

ويجد الأب الجواب على هذا السؤال الحائر بأن يقرر إرسالها إلى بلد بعيد لتعمل فيه بعض الوقت، وتكتسب خبرة الحياة وتتعرف على وجهها الآخر. وتساغر الفتاة فعلاً مقتنعة بأنها لا بد أن تقاوم هذا الحب اليائس وتتفتح لخبرات جديدة في الحياة، وتركب الطائرة إلى مدينة بعيدة وتعمل عملا جديدا، وتحاول بكل الطرق شغل نفسها وأفكارها عن فتى القلب الذي لا يشعر بها.

وتنضج شخصية الفتاة على نار الغربة بالفعل، وتكتسب فهما أكبر للحياة، ويكتسب جمالها أيضا نضجا أعمق وأبهى فلقد تخلصت من مظهر التلميذة الصغيرة، وتحولت بفضل خبرتها الجديدة إلى فتاة باهرة الجمال، تعرف كيف ترتدي ملابسها، وكيف تتحدث وتتعامل مع الآخرين.

وخلال غربتها الاضطرارية تمضي الحياة بالأسرة الثرية في طريقها المعهود فتزداد أعمالها تضخما وثراء، وينتهي المطاف بالشقيق الأصغر إلى الارتباط بطبيبة شابة جميلة يتفق معها - دون أن يعرف كيف فعل هذا - على الزواج!.. ويسعد شقيقه الأكبر وأمه لأول مرة بعلاقة من علاقاته المتعددة، لأن الفتاة - من حيث لم يكن يدري - هي ابنة صاحب ملايين خطير، كان شقيقه الأكبر يتفاوض معه بالصدفة على اندماج شركتيهما معا في إمبراطورية واحدة.

وتعتبر الأم والشقيق الأكبر هذا الارتباط الجديد شأنًا من شؤون الأسرة ينبغي إنجاحه وإتمامه، وإلا انسحب والد الطبيبة العنيد من مشروع الاندماج وقبل

عرضا من العروض الأخرى المتاحة له.

وتتضافر جهود الأم والابن الأكبر لإنجاح العلاقة والمضي بها إلى طريق الزواج.

وفي الفترة الحرجة التي تسبق إتمام الارتباط - والتي بدأ الفتى المدلل يستشعر فيها ثقل المسؤولية التي يقدم عليها - رجعت تلك الفتاة الصغيرة الجميلة من غربتها إنسانة أخرى.

وما أن وصلت الفتاة إلى وسط المدينة بأتوبيس المطار، حتى خرجت إلى الشارع تبحث عن وسيلة مواصلات تحملها إلى أبيها فإذا بها تراه أمامها بوجهه الوسيم وجاذبيته الساحرة!

يا إلهي!.. لقد كان وجهه لا يغيب عن مخيلتها لحظة واحدة طوال أيام الغربة، فإذا به يكون أول من تراه بعد العودة!

ابتسمت له بترحيب متوقعة أن يخف لاستقبالها بحرارة كما يفعل مع كل من يعرفه، لكنه ابتسم لها فقط على البعد في شك وتردد، ثم التقطت عيناه الخبيرتان جمالها الساحر، فاقترب منها في حذر وسألها: هل تعرفينني؟ فأومات له بالإيجاب، فعرض عليها توصيلها إلى حيث تريد، فركبت معه سيارته وهو لا يعرفها، واندesh حين عرف أن طريقهما واحد، واكتشف بعد وصول السيارة إلى بيته ومغادرتها له أنها نفس «الطفلة» الجميلة التي كانت تخصه دائما بنظراتها الحارة طوال السنوات الماضية، فيتوقف مذهولاً أمام الاكتشاف الخطير ويدعوها لحضور الحفل الذي تقيمه الأسرة في المساء، ليبدأ فصل جديد وخطير في حياة هذه الشابة الجميلة التي لفتت - أخيراً - انتباه هذا الفتى الرائع، فبدأ يتعامل معها كفتاة جميلة وليس كطفلة صغيرة!

وخلال الحفل الذي أقامته الأسرة في حديقة بيتها، ركز الشاب الوسيم اهتمامه حول هذه الطفلة السابقة التي أصبحت الآن شابة رائعة الجمال، حتى استشعرت الأم والشقيق الأكبر الخطر الذي يقترب من مشروع ارتباطه بابنة صاحب الملايين، ولاحظ الرجل نفسه اهتمام خطيب ابنته بهذه الفتاة الجميلة وتشكى من ذلك فنهض الشقيق الأكبر لإنقاذ مشروع الاندماج القادم بين أعمال الرجلين.

وفي حين كانت الفتاة الجميلة تنتظر نجم الأسرة الوسيم في بيت النباتات الزجاجي في الحديقة كما طلب منها وقع له - وهو في طريقه متسللاً إليها حادث صغير جرح فيه ببعض شظايا الزجاج، وطلبت له الأسرة الطبيب.

وذهب الشقيق الأكبر إلى الفتاة الجميلة في بيت النباتات يبلغها أن أخاه لن يستطيع الحضور، ثم طلب منها - بعد قليل من المراوغة- الابتعاد عنه لكيلا تدمر مشروع زواجه.. عارضا عليها أن يعوضها مالياً عن ذلك!

وتأسى الفتاة لما حدث لفتاها، وتأسى أكثر لهذا العرض المخجل من شقيقه الأكبر، لكنها لم تغضب منه.. وخلال الأيام التي قضتها الشاب طريح الفراش، غير الشقيق الأكبر خطته لإبعادها عنه بعد فشل أسلوب الإغراء المادي معها، وبدأ يركز اهتمامه الشخصي عليها ليشغلها عنه، فافتعل تكليفها بعدة مهام تقتضي أن

يصاحبها فيها لأطول وقت ممكن، ودعاها للعشاء في أحد مطاعم المدينة ليقتضي معها ساعات طويلة يتحدثان ويتسامران، حتى صارحته بأنها - وكل من يعملون لدى هذه الأسرة - بخشونة ولا يتصورون أن وراء قناعه الجامد هذه الشخصية اللطيفة.

وتأتي الفتاة لتزور الشقيق الأكبر في مكتبه - كما طلب منها- استعدادا للقيام معا برحلة إلى المدينة التي قضت فيها فترة الغربة، فتفاجأ به يعترف لها بحقيقة الهدف من اقترابه منها خلال الفترة الماضية، وبأنه لا يحبها كما أوهمها وإنما يريد إبعادها عن شقيقه لإنقاذ مشروع زواجه، ثم يكشف لها كل أوراقه، فيقول لها إنه كان ينوي أن يصطحبها إلى تلك المدينة البعيدة ويتركها هناك بعد أن يرتب لها سكنا مناسباً ومرتباً شهرياً من الشركة، ثم يرجع في اليوم التالي إلى عمله وحياته.

وتتغير الفتاة - التي كانت قد بدأت تتشكك في جدية مشاعرهما الطفولية تجاه الشقيق الأصغر - لتكتشف جاذبية هذا الأخ المتجهم وتتأثر به، وتلمع في عينيها دمعة حائرة، ثم ترفض كل ما عرضه عليها، وتقبل فقط تذكرة الطائرة وتودعه غير عاتبة لكي تستعد للسفر في اليوم التالي بلا عودة، ثم تنصرف كسيرة القلب والخاطر ويجد الشقيق الأكبر نفسه لأول مرة لا يسعد بانتصاره في معركة جديدة من معارك العمل والمنافسة التجارية، وتلمح الأم - الخبيرة بالنفوس البشرية مسحة الأسى الغامض في وجهه وعينه وهو يبلغها بانتهاء مشكلة هذه الفتاة.

وفي اليوم التالي يذهب إليه في مكتبه شقيقه الأصغر بعد أن شفي من جراحه واكتشف ما فعل شقيقه بهذه الفتاة الصغيرة، فيثور عليه ثورة عارمة ويلكمه في وجهه لكمة قوية خلال انفعاله، فيتحمل الأخ الأكبر اللكمة صابراً، ثم يفاجئه بأخر ما كان يتوقعه منه، إذ طلب منه - وهو يجفف الدم في وجهه من أثر اللكمة - أن يلحق بهذه الفتاة قبل أن ترحل، وأن يسافر معها في الرحلة التي كان مقرراً أن يسافر إليها معها لأنها تحبه بصدق، ولأنه يريد لها.. ولا بأس بأن تخسر الأسرة إحدى معاركها التجارية إذا كان في ذلك سعادة أحد أفرادها.

ويقف الشقيق الأصغر مذهولاً أمام ما يسمع منه.. فليس هذا هو شقيقه الأكبر الذي لا يعترف بأن في الحياة شيئاً يستحق أن يعرقل من أجله خطوة ناجحة من خطوات العمل والثراء.. وليس هذا هو الشقيق الذي يخيل إليه أنه لا يضم في قفصه الصدري سوى آلة حاسبة لا تأبه إلا للربح والخسارة.

ثم ما هذه النظرة الحزينة في عينيه؟ وكيف أمضى ليلته في مكتبه بعد أن كشف أوراقه لتلك الفتاة البريئة؟

وما معنى ما يقوله له من أنه قد استدعى صاحب الملايين لمقابلته في مكتبه بعد ساعتين لينهي إليه نبأ فسح ارتباط شقيقه الأصغر بابنته ويدع له أن يفعل بمشروع الاندماج ما يشاء أن يفعله؟

لا.. إنه ليس صوت شقيقه - الذي يعرفه جيداً - ولا تفكيره فماذا جرى له؟!!

وتلمع «الفكرة» في خاطره فجأة، فينظر إليه في فهم ثم ينسحب من مكتبه وقد اعتزم أمرا خطيرا.. ويتوجه إلى مكتبه بالشركة لأول مرة منذ سنوات، ويطلب من سكرتيرة شقيقه اللحاق به، ويكلفها ببعض المهام في سرية تامة، ثم يتصل بخطيبته الطيبة الشابة ويطلب منها الحضور إليه على الفور لمساندته فيما يعتزم أن يفعل، ويتصل كذلك بأمه.

وفي الموعد المحدد للاجتماع الخطير بين الشقيق الأكبر وصاحب الملايين لفض مشروع الاندماج، يبدأ الشقيق الأكبر في الحديث عن الضرورات العائلية التي قد تفرض على الإنسان أحيانا اعتبارات هامة قد تتعارض مع مصلحة العمل.. وقبل أن يتم عبارته فوجئ بشقيقه الأصغر يدخل إلى المكتب ومعه خطيبته ويكمل عبارة شقيقه قائلا: وتقديرا لهذه الاعتبار الهامة للغاية فإنه يستأذن صهره صاحب الملايين في أن ينوب عن شقيقه في توقيع أوراق عقود الاندماج بين الشركتين، لأن شقيقه الأكبر مضطر - للأسف - للسفر الآن فورا لأمر عاجل!

ويذهل الشقيق الأكبر لما يسمعه ويراه، ولا يدعه شقيقه لذهوله طويلاً، وإنما يقول له إنه قد أبلغ تلك الفتاة في كبرياء وشمم أنه لا يقبل «ببقايا»، أخيه! ولكنه لا يكمل عبارته لأن شقيقه الأكبر قد أفلتت أعصابه، وإذا به يلكمه لكمة قوية يرتج لها الفتى، لكنه يهتف بالرغم من الله ضاحكا وسعيدا:

- ألم أقل لكم إنه يحبها؟.. إنه يحبها كما قلت لكم!!

ثم يتوجه إليه بحديثه ويحثه على اللحاق بفتاته قبل أن تطير بها الطائرة، لأن الحب الحقيقي لا يتكرر كثيرا في حياة الإنسان، ولأنه لم يعرف طعم الحياة إلا منذ اقتربت منه هذه الفتاة واقترب منها، ويختتم حديثه له قائلا: فهيا يا شقيقي لا تضيع فرصتك في السعادة، فأنت تستحق هذه الفتاة الجميلة الطيبة، وهي تستحقك ولقد أعدنا لك كل شيء.. وحقيبة ملابسك مع سكرتيرتك، وتذكرة الطائرة جاهزة، فأجر ليكي تلحق بسعادتك قبل أن تطير إلى السماء، ولا تضيع الفرصة التي لا تأتي إلى الإنسان مرتين في الحياة!

ويقف الرجل مشدوها ينظر إلى الحاضرين، فيجد دمع الفرح يتترقق في عيني أمه، وعيني خطيبة شقيقه، بل وأيضا في عيني صاحب الملايين شريك العمل.. فتساءل في تخاذه: وماذا عن العمل.. ومشروع الاندماج؟.. فيقدم إليه شقيقه الأصغر ورقة يطلب منه أن يفوضه فيها بالتوقيع نيابة عنه على كل الإجراءات، ويدفعه دفعا للخروج من المكتب والذهاب إلى المطار وهو يطمئن على العمل وعلى كل شيء، ويؤكد له أنه يعرف كل أسرار العمل ويقراً تقارير المتابعة بانتظام منذ سنوات، لكنه لم يكن يجد لنفسه دورا معه، والآن قد جاء دوره هو لكي يعرف بعض السعادة وبعض الاستمتاع بالحياة.

وفي لحظة «تنوير» خاطفة يعترف الرجل لنفسه بكل ما قاله شقيقه الأصغر الذي كان يظنه مجرد فتى عابث لا تهمة في الحياة إلا مغازلة الفتيات يخطف الحقيبة والتذكرة من يده ويهرول خارجا من المكتب.

وفي السيارة التي يقودها والد الفتاة يسأل الرجل سائقه الأمين وسائق أبيه لسنوات طويلة عن عنوان ابنته في المدينة التي رحلت إليها، ويحثه على الإسراع للحاق بالطائرة التالية لطائرتها.

ويصارع السائق زحام السيارات في الطريق إلى أن يصل إلى نقطة اختناق يتعذر عليه بعدها أن يواصل التحرك، فيلتمت إلى السيد الجالس في المقعد الخلفي ويقول له بلهجة موحية: الآن قد جاء دورك يا سيدي لكي تواصل الرحلة جريا على الأقدام، فأجر يا سيدي إذا أردت اللحاق بطائرتك!

ولا يتردد الرجل في العمل بنصيحته، ويغادر السيارة جاريا بين زحام السيارات الواقفة ليلحق بطائرتة وبسعادته وبالحياة الحقيقية التي لم يتعرف على مذاقها طوال سنواته الماضية إلا حين استمع لأول مرة في حياته إلى نداء ساحر غامض آخر يختلف كثيرا عن نداء الأرقام وطموح المال!

وتنتهي هذه القصة الرومانسية الساحرة التي كتبها المؤلف المسرحي الأمريكي «صامويل تايلور» كمسرحية قدمت باسم «سابرينا» في مسارح برودواي بنيويورك في بداية الستينيات، ثم قدمتها السينما الأمريكية بعد ذلك مرتين: كانت الأولى في الستينيات، وكانت الفتاة الجميلة الحاملة فيها هي «أودري هيبورن» ومرة أخرى في بداية التسعينيات، وكانت الفتاة الجميلة فيها هي «جوليا أرموند» التي تقترب في براءة ملامحها إلى حد كبير من ملامح «أودري هيبورن».

أما المغزى في كل الأحوال فقد كان واحدا، وصادقا، ومؤثرا وهو: «أجر وراء سعادتك»، وإلا فانتك الفرصة إلى الأبد فلم ترجعها إليك الحياة بعد ذلك مرة أخرى.

فمتى يعمل الإنسان بهذه الحكمة الذهبية؟

ومتى يفهم مغزاها.. ومعناها؟



الحب بدعوة ملكية

أول سؤال يخطر ببالي حين التقى بزوجين شابين هو: كيف التقيا.. وتزوجا؟

وفي معظم الأحيان أسمع الإجابة الشائعة عن هذا السؤال وهي: القسمة والنصيب. وفي أحيان أخرى أسمع إجابة مختلفة هي الحب، أو الجوار.. أو القرابة، أو زمالة العمل، فلا أرى فارقا كبيرا بين هذه وتلك.. فالحب أيضاً من قدر الإنسان، وكذلك علاقات الجوار والقرابة وزمالة العمل.

ولقد يتجاوز البشر أو يتزاملون في العمل.. أو تجمعهم صلة القرابة.. ولا يتحابون ولا يتزوجون. لأنهم لم يلتقوا بأقدارهم في هذه المجالات.. والتقوا بها في مجالات أخرى بعيدة عن توقعاتهم.

ولهذا فإنه حين يشكو لي بعض الشباب وبعض الفتيات من أنهم لم يلتقوا بعد بشركاء حياتهم، لا تزيد نصيحتي لمن يسألني منهم عما يفعل لكي يحصل على فرصته العادلة في السعادة على أن أقول له: لا تفعل شيئاً.. فقط واصل حياتك في هدوء وأمل في الغد.. والتزم بالفضائل الأخلاقية.. والمثل العليا.. واستمتع بعملك وبالعلاقات الصداقة والزمالة والقرابة والجوار، ولسوف يلتقي بك قدرك أو تلتقي به حين تجيء إشارة السماء بذلك.

وربما أستعيد إلى ذاكرتي قصيدة ذلك الشاعر الأمريكي التي تقول لكل مشغول بأمره:

استمر.. استمر

واصل الطريق

ولسوف تجد حلاً لما تشكو منه

ولن تجده أبداً

إذا توقفت الآن في مكانك!

ولقد أقول له أيضاً: إن حظوظنا في الحياة هي التي تتبعنا ولسنا نحن الذين نتبعها، ولو خيل إلينا في بعض الأحيان غير ذلك.

ذلك أنه حتى من يقولون إنهم قد صنعوا حياتهم بأيديهم واختاروا رفاقهم في رحلة العمر بإرادتهم لا يستطيعون إنكار دور السماء التي وضعتهم في طريق أقدارهم.. أو وضعت أقدارهم في طريقهم.. وأذنت للطرفين بالالتقاء والتوافق.

وأما متى يجيء إليك حظك في الحياة.. فإنه - كما يقول البسطاء - قد يجيء لأهون الأسباب.. أو أغربها.. وأحياناً أطرفها!!

أعرف صديقا كان مهموماً بالبحث عن نصفه الآخر وصادفه سوء التوفيق في عدة محاولات، ثم تعاطفت معه زميلة له في العمل ورشحت له جارة شابة لها رأت

فيها كل المزايا التي يبحث عنها ودعته لزيارتها في بيت أسرتها لكي تتيح له رؤية هذه الجارة بغير أن تلفت نظرها إلى الغرض الحقيقي من زيارته. وتوجه صديقي إلى بيت زميلته في الموعد المحدد ووجد لديها شابة جميلة ومهذبة.. صافحها ضمن من صافحهم من إخوتها وهو في طريقه للصالون.. وبعد قليل دخلت إليه زميلته بصينية الشاي.. ففوجئت به يقول إنه أعجب بمن رشحتها له ويريد الارتباط بها.. وتعجبت الزميلة كيف أعجب بها وهي لم تأت بعد من مسكنها المجاور! وتعجب الصديق لعجب زميلته وسألها: أليست هي هذه الفتاة المهذبة التي تجلس مع والدتك وإخوتك، وأجابته بالنفي وقالت له: إن هذه الفتاة هي ابنة شقيقها وقد مرت اليوم ببيت الأسرة بالمصادفة وهي في طريق عودتها من عملها بعد غيبة لا تقل عن أسابيع!

لكن.. سبق السيف العذل كما يقولون. فلقد ولدت الشرارة المقدسة في قلب هذا الصديق.. وأراد الارتباط بهذه الفتاة التي ساقتها أقدارها إليه على غير انتظار!.. ولم يمض عام على هذا اللقاء العابر حتى كانا قد تزوجا وسعدا بحياتهما ونجح زواجهما.

فهل عندك تفسير لما حدث سوى أنها الأقدار التي قد تجمع بين الغرباء.. وقد تفرق أحيانا بين المتجاورين!

أعرف صديقا آخر كان كاتباً صحفياً شهدت حياته الشخصية بعض الأعاصير والزوابع، فلقد تزوج مرتين وأنجب من كلا الزوجتين، ثم شهدت حياته مع الزوجة الثانية بعض الخلافات الحادة التي فشلت كلاهما في احتوائها، وتم الانفصال بينهما، وبعده ببضعة أسابيع قليلة شكى من آلام في أسنانه وتوجه إلى زيارة طبيب صديق له في باب اللوق، ووقف ينتظر المصعد بين زحام المنتظرين، ثم جاء المصعد فتسابق إليه المنتظرون، وكان من بينهم سيدة متوسطة العمر جميلة ومحتشمة المظهر لفتت نظره منذ الوهلة الأولى، فتأخر هو ليتيح لها فرصة الدخول.. وشكرته في أدب على رفته.

ثم أراد أن ينضم إلى ركاب المصعد غير أن العامل أشار إليه باكمال العدد، فتراجع عنه وأغلق العامل الباب، لكن المصعد لم يتحرك بالرغم من ذلك، بل انفتح بابه مرة أخرى وخرجت منه سيدة كانت قد سبقت زوجها للمصعد، ولم يجد هو لنفسه مكاناً فيه، فأثرت الخروج وانتظار المصعد الآخر مع زوجها.. فكانت فرصة صديقي الكاتب الصحفي للحاق بالمصعد وبقدرة أيضاً مع السعادة.. فلقد دخل المصعد مبتسماً للمصادفة التي جمعتهم من جديد مع السيدة الجميلة.. ولم يكن صعباً أن يختلق من وحي الموقف تعليقا مناسباً ابتسمت له السيدة.. ثم اكتشف الاثنان أنهما ذاهبان إلى نفس الطبيب، فجمعت بينهما غرفة الانتظار مرة أخرى، ولم يمض على لقاء المصادفة هذا شهران فقط حتى كانا قد تزوجا وشهد على عقد زواجهما طبيب الأسنان الصديق.

وكانت هذه الزيجة هي أنجح الزيجات التي شهدتها حياة هذا الكاتب الصديق وأطولها! وكانت هذه السيدة هي التي انطوت صفحة حياته وهو يعيش آمناً سعيداً

في ظلها.

فهل عندك تفسير لذلك سوى أنها الأقدار التي قد تجدل خيوط البشر أو تفرق بينهم؟

إنه ليس الحب من النظرة الأولى كما قد تتصور، إذ أنه في الحقيقة ليس هناك حب من النظرة الأولى أو العاشرة.. والحب من النظرة الأولى هو قرين الجنون كما يقول أحد الأدباء الأمريكيين، لأن الإنسان لا يحب أحدا لم يعرفه.. ولم يتعامل معه وتتشابك الخيوط بينهما، لكنه فقط الإحساس بالاستعداد النفسي لتقبل من رآته العين للمرة الأولى.. ثم تنسج عوامل التعارف والصحة والتفاهم خيوط القصة المشتركة بين الطرفين. وقد تنجح في ذلك.. وقد تفشل.. وفي كل الأحوال سوف يظل ما يسمى بحب النظرة الأولى مجرد بطاقة تعارف بين غربيين رشحتهما الأقدار للامتزاج والترابط!

وحتى في قصص الحب والزواج التي يخيل لأصحابها أن دور الإرادة الشخصية هو الدور الحاكم فيها، تظل دائما للأقدار كلمتها العليا في الجمع أو التفريق بين أصحابها.

فالمملكة العظيمة «فيكتوريا» كانت قد تعرفت على الأمير الشاب «ساكس جوتا» قبل عام من اعتلائها لعرش إنجلترا وأعجبت بشخصيته.. ثم تولت العرش.. وبعد عامين من اعتلائها له لعلها لم تتذكره خلالهما كثيرا، التقت بهذا الأمير ذات يوم مع غيره من أفراد الأسرة المالكة، فإذا بإعجابها السابق بشخصيته يتحول في لحظة سحرية مفاجئة إلى حب، وإذا بها بعد ذلك بأيام تستدعيه لمقابلتها، وتستقبله في قاعة العرش وهي تضع في إصبعها خاتما ماسيا كبيرا يحمل صورته، ثم فاتحته بحبها.. وبعد عام من هذا اللقاء الفاصل تزوجته وعاشت معه ٢١ عاما من السعادة الخالصة، كانت خلالها مثلا للجمال والزوجة المحبة الصالحة، ثم مات فانكسر قلبها واعتزلت الدنيا حزنا عليه، إلى أن نجح رئيس وزرائها «ديزرائيلي» في إخراجها من عزلتها، فخرجت وبنت الإمبراطورية التي لم تكن تغرب عنها الشمس وزينت تاجها بدرة الهند!

لقد كان حبا بدعوة ملكية.. ولكن ماذا لو لم يستجب الأمير الشاب لهذه الدعوة الكريمة؟ وماذا لو لم يكن الإعجاب بشخصيته قد تحول فجأة في تلك اللحظة السحرية إلى حب في قلب الملكة الشابة؟

هل كانت الإرادة وحدها تكفي للجمع بين شخصين لم يكتب لهما في اللوح المسطور من قبل أن يولدا أن تجمع بينهما حياة واحدة؟ لقد أراد الروائي الإنجليزي العظيم «تشارلز ديكنز» أن يتزوج الفتاة التي أحبها «ماريا بندل» ابنة مدير أحد المصارف بإنجلترا.. ولقد كان عاشقا متيما بها، لكنها رفضت حبه وقالت: إن تشارلز شاب لطيف.. لكنه أديب.. فهل يستطيع أن يعولني بقلمه؟ وتحولت عنه وتزوجت من تاجر ثري، وتزوج تشارلز بعد سنوات زواجا تقليديا لم يسعد به كثيرا، ولم يعجز أيضا عن احتمالها.. وقال عنه النقاد إنه قد رضي بالمزيج المعتدل من النجاح الأدبي والتعاسة الزوجية، فلم يمض على زواج ماريا

بزوجها التاجر سوى بضعة أعوام حتى تعثرت تجارتها وأفلس وعاشت معه حياة جافة محرومة.. في حين حقق ديكنز نجاحا أدبيا وماديا هائلا ودرت عليه رواياته مالا وفيرا حتى أصبح من أغنى الأغنياء في إنجلترا.

وعلى العكس من قصة ماريا مع تشارلز.. فلقد تزوج المفكر الفرنسي «مونتسكيو» من ابنة جنرال قديم من جيران بيته في ريف «بورديو».. ولم تكن أسرتها غنية ولا كانت هي نفسها جميلة أو مغرية.. وسئل مونتسكيو: ماذا أعجبك فيها لكي تتزوجها؟ فأجاب: أعجبتني راحة عقلها عندما تحدثت إليها ذات مرة حين زرت أباها!

وصدقت فإساسة المفكر الكبير في من تزوجها، فلقد نجحت في إبعاده وتوفير كل أسباب الراحة والنجاح له، وكان يغادر «بورديو» إلى باريس ليلتقي بأدبائها ومفكرها تاركا لها توكيلا بإدارة أملاكه وأعماله.. فتديرها عنه بحكمة. ولا تعترض طريق حريته الشخصية وأعماله الفكرية، وتسعد بعودته إليها بعد بضعة أسابيع أو شهور من باريس ليحدثها عما فعل وما شهد من محافل أدبية وفكرية في العاصمة الفرنسية!

أما الروائي الروسي العبقرى «ديستوفسكى» فلقد احتاج إلى سكرتيرة لكي يملأ عليها كتابه الذي يؤلفه إلى جوار فراش زوجته المحتضرة. لأنه لا يريد أن يفارقها إلى غرفة المكتب في أيامها الأخيرة.

ولا عجب في ذلك فقد أحبها سنوات طويلة وانتظر بصبر عجب حتى تاملت لكي يتزوجها، ولم تطل عشرتها له كثيرا حتى مرضت مرضا شديدا. ولازمت الفراش.. واقتربت منها النهاية المحتومة.

وجاءت السكرتيرة الشابة لتؤدي مهمتها، فنظرت في إجلال إلى وجه الرجل الذي يلزم فراش زوجته وهو يؤلف كتابه.. ورحبت بأداء المهمة بحماس وإخلاص، فما أن تم الكتاب حتى كانت زوجته قد ماتت، وشعر ديستوفسكى بالقلق والاضطراب، لكن السكرتيرة الشابة بددت قلقه ومخاوفه وقالت له: لا يمكن أن تجمع الأقدار بين جبلين متباعدين، لكنها تستطيع أن تجمع بين رجل وامرأة يحتاج كل منهما للآخر! ثم تزوجته وحلت محل زوجته الراحلة.. وعوضته عن كل تعاسه السابقة!

والدكتور لويس عوض انتقل إلى فندق صغير بشارع المدارس «ري ديزيكول»، بالحي اللاتيني بباريس خلال دراسته في السوربون فتعرف فيه بمن أصبحت بعد ذلك زوجته، وتزوجها في نفس هذا الفندق وشاركته رحلة العمر حتى رحل عن الحياة بعد أكثر من 40 عاما من لقاء المصادفة بينهما في هذا الفندق الصغير.. وسعد بحياته معها.. ولم ينكر عليها شيئا سوى ولعها الغريب باقتناء 10 قطط على الأقل في بيت الزوجية طوال رحلة العمر!

والدكتور طه حسين احتاج إلى مرافقة تأخذ يده إلى جامعة السوربون خلال دراسته وتقدمت لأداء هذه المهمة فتاة صغيرة من سكان البيت الذي يقيم به

بالقرب من الجامعة.. ثم تقدمت أيضا للقراءة له في ساعات المساء بعد العودة من الجامعة، فأحبها في صمت، وكنتم حبه عنها فترة طويلة، إلى أن عجز عن احتمالها وصارحها به.. فطلبت منه أن يمنحها مهلة للتفكير في الأمر خلال شهور الصيف التي ستبتعد خلالها عنه حين تذهب إلى الجنوب، فإذا أرسلت إليه خطابا تدعوه للحاق بها هناك فسيكون ذلك إشارة بقبولها لحبه وموافقته على الزواج منه، وترقب هو في باريس صابرا هذا الخطاب السحري شهرين مريرين إلى أن جاء إليه أخيرا فأسرع بالسفر إليها في الجنوب وبدأت قصة العمر التي دامت بينهما حتى رحل عن الحياة بعد أكثر من 50 عاما من بدايتها!

وغير هؤلاء كثيرون التقوا بأقدارهم أو التقت بهم أقدارهم، حيث لم يتوقعوا أن يكون اللقاء.

فإن كنت لم تلتق بعد بأقدارك.. فلا تيأس من انتظارها.. وأعن نفسك على أن تكون مستعدا لاستقبالها حين تجيء إشارة السماء، ذلك أن الفرص السانحة قد تمر بنا دون أن نتعرف عليها في الوقت المناسب كما يقول لنا المفكر الفرنسي «ريشليو» وليس أظلم لنفسه ممن يضيع على نفسه فرصة السعادة، ولا أتعس ممن تمنح له سوانحها.. فيجهلها أو يتعامى عنها أو يتباطأ في اقتناصها إلى أن تمضي عنه وتتجاوزته إلى غيره ممن هم أكثر يقظة عقلية وحكمة وتنبيها. لالتقاط الثمرة الهابطة من السماء والتمسك بها.. والدفاع عنها.



غريبة يا دنيا

يا إلهي!.. كان كل من التقى به من المذيعين والمحريين الذين يجرون معي لقاءات صحفية أو تليفزيونية أو إذاعية قد اتفقوا فيما بينهم على أن يوجهوا لي هذا السؤال المحير نفسه في كل مرة:

ما هي أغرب وأطرف مشكلة صادفتك خلال تعاملك مع هموم الناس في بريد الجمعة؟

نعم.. فلا بد من هذا السؤال في بداية الحوار أو وسطه أو نهايته ولا بد من أن أجهد عقلي وذهني لأتذكر أغرب المشاكل وأطرفها، فافاجأ - كل مرة - بأنه قد تبخرت فجأة من ذاكرتي كل الغرائب التي صادفتها وتعاملت معها خلال الأعوام الثمانية عشرة التي كتبت خلالها بريد الجمعة، فأعجز في أحيان كثيرة عن تذكرها لكي أَرْضَى فضول محاورتي أو محاورني، وأضطر أحيانا - في النهاية- للاعتذار بأنني لكثرة ما صادفت من غرائب لم أعد أستغرب شيئا أو أتعجب له من نزعات النفس البشرية التي لا يستطيع أن يحيط بكل أسرارها أحد، ولذا.. فلكثرة ما رأيت لم أعد أتذكر شيئا!

لكن هذه الإجابة لا ترضي من يحاورني، فيلح عليّ بأن أجهد ذهني لأتذكر بعض غرائب المشاكل حتى يكتمل الحوار الذي يجريه معي.

وأخرج من الرفض.. فأعود لأحاول اعتصار ذاكرتي مرة أخرى لأستخرج منها بعض المشاكل غير المألوفة، فأنجح بعد معاناة وأتذكر مثلاً قصة ذلك الرجل الذي نشرت رسالته في بريد الجمعة بعنوان «الدعاء»، والذي ماتت زوجته بعد عشرة ٢٥ عاما لم يكونا خلالها على وفاق فيما يبدو، فسار في جنازتها يدعو عليها لا لها ويسأل ربه - غفر الله له - أن يضيق عليها قبرها كما ضيقت عليه حياته، «ويتذكر» لها أنها كانت عوناً للزمن عليه ولم تكن عوناً له على الزمن، وأنه طوال سنوات عشرين لم ير منها إلا «قفاها» لأنها كانت دائمة الخصام معه.. فأروى لمحدثي هذه القصة ويسألني عما أجبت به على رسالته، فأجيبه بأنني قد قسوت عليه لأنه عاش مع زوجته كل هذه السنين وهو ينطوي لها على كل هذا البغض دون أن يرغمه أحد على معاشرتها، وحتى إن كانت ظروف القاهرة قد حالت بينه وبين الانفصال عنها، فإنها الآن قد انتقلت إلى جوار ربها ولم تعد تستحق منه إلا الدعاء لها بالرحمة وليس عليها بالجحيم!

أو أتذكر أيضا قصة الزوجة الشابة التي كتبت لي تشكو من زوجها الذي «يعايرها» دائما بأنفها الكبير، ولا يناديها أمام أطفالها إلا بـ «أم منخار» رغم بكائها وتوسلها إليه أن يعفيها من هذا النداء الذي يجرح مشاعرها كزوجة وأم وشريكة حياة مخلصه محبة، فلا يكف عن ذلك.. حتى طالبته فجأة بالطلاق.

وتتولى الزوج دهشة طاغية فيسألها باستنكار:

- الطلاق؟ لماذا.. هل ضربتك بسكين؟

فلا تفيد معه دموعها ولا محاولتها لإقناعه بأنه يؤلم مشاعرهما بهذا العبث أكثر مما يؤلمها جرح السكين، وتناشدني في رسالتها أن أوضح له ذلك.. فأنهال عليه لوما وأطالبه باحترام مشاعر زوجته وتجنب إيلاها بهذه العبارة السخيفة، حتى ولو كانت من باب المداعبة ما دامت تتألم لها.

ويبتسم القراء حين يقرأون رسالة هذه الزوجة.. ثم لا يلبثون بعد أقل من عامين أن «يمصصوا» الشفاه أسفا عليها حين يكتب لي زوجها رسالة أخرى ينعى إليّ فيها زوجته الطيبة المخلصة هذه بعد مرض عارض لم يطل سوى أسابيع، ويتذكر بحسرة مؤلمة كيف كانت «أجمل» النساء وأكثرهن إخلاصا لزوجها وبيتها وأطفالها.

ويلوم نفسه - حيث لا ينفع اللوم - على أنه كثيرا ما جرح مشاعرهما بتلك العبارة السخيفة، وهو لا يدري أنها سوف تغيب عن حياته بعد أقل من عامين وتترك وراءها صغارا حائرين.. وزوجا حزينا!

فأرد على رسالته الحزينة بمواساته متجنباً تذكيره بما ألم بزوجته طويلاً، لأنه يتذكره جيدا ويندم عليه.. ولكن بعد فوات الأوان.

أو أتذكر أيضا قصة ذلك الأب الذي غادر مدينته المحلة الكبرى إلى الإسكندرية ليجري جراحة في عموده الفقري بمستشفى المواساة فقراً وهو في غرفته بالمستشفى قبل إجراء الجراحة رسالة نشرتها في بريد الجمعة بعنوان «فاتورة الألم» عن فتاة صغيرة اسمها «ابتسام» شاعت لها أقدارها أن تسقط في مدينتها «إيتاي البارود» تحت عجلات القطار فتفقد ساقا وذراعا كاملتين وكف الذراع الأخرى، ومع ذلك فهي راضية بأقدارها ولا تكف عن الابتسام في وجوه أطبائها وزوارها.. حتى تأثر بقوة إيمانها طبيب شاب بالمستشفى فكتب إليّ عنها ونشرت رسالته ودعوت أهل الفضل من القراء لمساندتها بكلماتهم الطيبة، وإلى زيارتها أيضا لمن استطاع إلى ذلك سبيلا.. فانهالت عليها الرسائل من داخل وخارج مصر، وزارها عشرات من الفتيات والشبان والسيدات الفضليات من القاهرة والإسكندرية والمدن القريبة من مستشفاها. وكان من بين من قرأوا رسالتها هذا الأب الذي يستعد لدخول غرفة الجراحة، فنذر لربه نذرا إن من الله عليه بالشفاء أن يزور هذه الفتاة الصابرة وهو في طريق عودته من الإسكندرية إلى مدينة المحلة الكبرى.

وأجرى الجراحة.. وكللها الله بالنجاح.. فأوفى بنذره وأصر على زيارة تلك الفتاة رغم معارضة زوجته وذويه لذلك حتى لا يطيل على نفسه مشقة السفر وهو الذي يسافر في عربة إسعاف راقدا على ظهره، لكنه زار «ابتسام» فعلا في المستشفى وقدم لها بعض الهدايا، وأعجب كثيرا بإيمانها وتفاؤلها بالحياة والمستقبل رغم ما أصابها.. وغادرها مستريحا نفسيا وراضيا عما فعل.

لكنه ما أن وصل إلى بيته في مدينة المحلة الكبرى حتى صدم صدمة مروعة بأن ابنه الشاب - الذي لم يره منذ ثلاثة أسابيع، وكان صحيح الجسم وفي تمام العافية - يرقد في البيت مبتور الساق!

ويعرف الأب المذهول أن ابنه الشاب قد أراد السفر إليه بالإسكندرية لزيارته في المستشفى، فإذا به يسقط تحت عجلات القطار ويتم بتر ساقه، وقد أخفت عنه الأسرة هذا الخبر المؤلم حتى لا تتأثر به صحته وهو مقدم على الجراحة الخطيرة، وكان مبررها لعدم زيارة ابنه له هو انشغاله بالاستعداد للامتحان.

ويتجاوز الأب آلامه وأحزانه، «ويفهم» - كما كتب لي في رسالته - لماذا دعاه هاتف من السماء لأن يزور تلك الفتاة مبتورة الساق والذراع والكف ويعجب بقوة إيمانها وتفاؤلها بالحياة، ويدرك أن الله سبحانه وتعالى قد هداه إلى أن يقوم بهذه الزيارة كأنما يمهده نفسيا لمواجهة الصدمة المؤلمة التي تنتظره في بيته، وليرى أن ابنه الشاب رغم ما أصابه فهو أفضل حالا من هذه الفتاة.. ويتخيل ماذا كان يمكن أن يصيبه من انهيار لو لم يكن قد زار هذه الفتاة وتحدث إليها ورأى ابتسامتها المشرقة وثقتها بربها ونفسها، فيخجل من نفسه إن هو انهار أمام ما أصاب ابنه الشاب من تصاريق القدر.. ويعتصم بالصبر والرضا على كل ما حملته له ولأسرته أمواج الحياة.

أو أتذكر قصة ذلك الشاب الذي اتصل بزوج سيدة شابة كانت مريضة بالفشل الكلوي وتحتاج من يتبرع لها كلية لإجراء عملية زرع لها، وكنت قد نشرت قصتها في رسالة مؤلمة لزوجها الشاب بعد أن ثبت عدم توافق أنسجته وأنسجة كل أفراد أسرته مع أنسجتها، فأصبحت في حاجة إلى متبرع بالكلية تتوافق أنسجتها معه.. فاتصل به هذا الشاب وعرض عليه التبرع بإحدى كليتيه لزوجته، وخضع للتحاليل والفحوص اللازمة، فأثبتت توافق أنسجته مع أنسجة الزوجة إلى حد مذهل.. وسأل الزوج ذلك الشاب عما يطلبه لقاء التبرع بكليته لزوجته، فطلب منه مبلغا زهيدا وأقسم له أنه لو لم يكن يحتاج إلى هذا المبلغ «لضرورة قصوى» لما قبل أن يتقاضى منه أي ثمن مقابل تبرعه بكليته لزوجته التي تعاطف معها ومع زوجها المخلص وقدم إليه الزوج المبلغ البسيط الذي طلبه، ودخل الشاب المستشفى ليقوم فيها شهرا كاملا ما بين إجراء الفحوص العديدة قبل الجراحة، وبين فترة النقاهاة بعد استئصال كليته وزرعها في جسم الزوجة الشابة.. فما أن تمالك نفسه حتى غادر المستشفى واختفى عن كل مظاربه، واحتاج إليه الزوج الشاب في أمر ما، فبحث عنه طويلا حتى عثر عليه بعد جهد جهيد.. فهل تعرف أين عثر عليه؟.. في مستشفى خاص يجرى لنفسه جراحة تجميل لتصغير الأنف، ويدفع للمستشفى وللجراح الكبير كل ما تقاضاه من الزوج الشاب مقابل استئصال كليته راضيا، بعد أن حقق لنفسه حلمه القديم في التخلص من هذا الأنف الكبير الذي كان يثير سخرية الصغار منه في طفولته!

وغريبة يا دنيا.. حقا وصدقا؟

اتذكر مثلا حكاية الشاب الذي يهوى تقبيل أذنية السيدات والآنسات في الشارع، والذي يتقدم إلى سيدة أو فتاة لا يعرفها في الشارع ويسألها في «أدب» عما إذا كانت تأذن له بأن يقبل حذاءها.. فإذا وافقت انحنى بهدوء وقبل حذاءها بتلذذ غريب، ثم نهض وشكر الفتاة أو السيدة وانصرف إلى حال سبيله.

وقد كتب إلى رسالة منذ عدة سنوات نشرتها فيما أذكر بعنوان الحذاء يتعجب، فيها من ثورة السيدات والفتيات عليه حين يستأذنه في ذلك، ومن غضب الأزواج والأشقاء الذين يعتدون عليه بالضرب حين يفعل ذلك.. ويناشدني أن أكتب للسيدات والفتيات والأزواج أن يكونوا أكثر «تهديبا»، ومرونة معه من ذلك.. وقد نصحته وقتها بعرض نفسه على الطبيب النفسي ليخلصه من هذا الانحراف النفسي الخطير المعروف باسم «الفتيشية» أو «الفتيشيزم» قبل أن يعرضه للمهالك.

أو أتذكر قصة المهندس الشاب الذي كان يعيش مع زوجته وطفليه حياة مستقرة هادئة راضيا بدخله ورزقه المحدود.. إلى أن اشترى الفيلا القديمة المجاورة لمسكنه ثرى محدث، فجدها وأنفق عليها الكثير، ثم انتقل إليها بأسرته.. فإذا بالمهندس الشاب يرقب من شرفته حياة مختلفة تماما عن حياته البسيطة المتقشفة، ويشهد كل يوم «مهرجانا» مستمرا للاحتفال بمناسبة «دائمة» لا يعرف كنهها تقام لها المآدب الحافلة كل يوم، ويشارك فيها الزوار العديدين؛ وتنقل إليها سيارات المطاعم الكبرى أكداًس الطعام الفاخر، وتأتي إليها الفرق الموسيقية لتشرف أذان الحاضرين بمعزوفاتها.. فيكاد يصيبه والجنون، مما يهدر كل يوم من مال يزيد أضعافا مضاعفة عما يتقاضاه في شهر كامل، ويتسرب إليه الإحساس بالدونية.. وقد كان - كما قال لي في رسالته - يظن نفسه من صفوة المجتمع المتعلمة ومن أبناء الطبقة المتوسطة، فإذا به يكتشف أنه من الطبقات الدنيا في المجتمع حين أتاحت له فرصة المقارنة.. حتى لم يعد له من عمل بعد الظهر سوى الجلوس في الشرفة ومراقبة هذا العالم الغريب عليه والرد على انتقادات زوجته واتهامها له «بالخيبة»، لأنه لا يوفر لها بعض ما تراه من هذا المستوى الفاخر من المعيشة أو.. أو.. أو..

ويبدو أن ضيقي بهذا السؤال المتكرر قد بلغ منى قمته حين سألتني إياه منذ أيام مذيعة تليفزيونية.. فقلت لها فجأة وبلا مقدمات: هل تعرفين أنه قد صدرت في بريطانيا عام ١٨٩٨ رواية ١٨٩٨ بعنوان «غرق السفينة تيتان» لمؤلف إنجليزي غير مشهور اسمه «مورجان روبرتسون»، وكانت تروي قصة خيالية عن تعرض سفينة جبارة اسمها «تيتان» للغرق في أول رحلة لها عبر المحيط الأطلسي من ميناء «ساوث هامبتون» الإنجليزي إلى ميناء «نيويورك» وكانت السفينة الخيالية تحمل ٢٥٠٠ راكب فاصطدمت بجبل جليدي عائم ولم تكن تحمل من زوارق النجاة سوى ٢٤ قاربا فقط لشدة الثقة في متانتها واستحالة غرقها.. فأدى ذلك - في الرواية - إلى غرق معظم ركابها. وأن هذه الرواية قد صدرت فلم يلتفت إليها أحد.. ثم بعد ١٤ عاما فقط من صدور هذه الرواية غرقت في الواقع - وليس في الخيال - سفينة عملاقة اسمها «تيتانك» في أول رحلة لها أيضا بين بريطانيا وأمريكا لاصطدامها بجبل من الجليد بنفس الطريقة تقريبا التي صورتها الرواية المجهولة، فغرق معظم ركابها وكانوا حوالي ٢٠٠٠ راكب لأنها لم تكن تحمل من زوارق النجاة سوى ٢٠ قاربا فقط.. ثقة أيضا في متانتها واستحالة غرقها!

ثم لاحظ بعض نقاد الأدب التشابه الغريب بين اسم السفينة الغارقة في الرواية وبين السفينة الغارقة في الواقع، وتقارب حمولة كل منهما.. إذ كانت حمولة السفينة الخيالية «تيتان» ٧٠ ألف طن وحمولة السفينة الحقيقية «تيتانيك» 66 ألف طن.. وأن كليهما لم تكن تحمل العدد الكافي من قوارب النجاة.. وأن قبطان السفينة - في الرواية - كان يقول إن أية قوة في الأرض لا تستطيع إغراق هذه السفينة، كما قال صناع «تيتانك» إن سفينتهم غير قابلة للغرق!

ولفت النقاد أنظار القراء إلى هذا التشابه العجيب بين الواقع والخيال، فأقبلوا على قراءة الرواية المغمورة التي تنبأت بهذا الحدث ووصفته قبل أن يقع بدقة غريبة، فأصبحت من أشهر الروايات في مطلع القرن الحالي!!

قلت ذلك كله للمذيعه واستمعت هي إليه بدهشة واهتمام.. ثم سألتني في حيرة: ولكن ما علاقة هذه القصة بمشاكل الناس في بريد الجمعة؟

فأجبتها ضاحكا ومعتذرا: لا علاقة بينهما.. لكني سنمتُ الإجابة على السؤال التقليدي، وسنمتُ مراوغة الذاكرة لي كلما سألته فأردت التهرب منه بهذه القصة الحقيقية.. فهل ترينني نجحت في ذلك؟

فأجابتنى بإصرار: أبدا.. أجب من فضلك.. ما هو أغرب...؟

وعدتُ مستسلما أحاول اعتصار ذاكرتي المجهدة لأتذكر المزيد والمزيد من غرائب الحياة.. وعجائبها.



عفوا.. إنني الأحظك

أعيش بين الناس أكثر مما أعيش مع نفسي.. وأعيش مع نفسي أكثر مما أعيش بين الناس! فإذا أردت تفسيراً لهذا «اللغز» قلت لك إنني ألف الناس ويألفونني.. أجد نفسي في صحبتهم.. ولا أضيق بوحدي إذا انفردت بأفكاري.. أسعد بوقتي إذا وجدت الصحبة الطيبة.. ولا أضيق به إذا وجدتني وحيداً لفترة من الزمن، ففي الكتاب الذي لا يفارقتي في الحل والترحال ألقى بعض ما يشغل فراغي.. وفي شرودي بذهني إلى عالم آخر أو زمن ماض ما يخفف عني وحتدي، وحتى حين أكون بين الآخرين فإنني لا أكف عن القيام بأسفار سعيدة إلى أيام جميلة مضت من العمر.. أستعيدها في ذهني، أسترجع فيها صور الأحباء الراحلين عنا بالغياب الأبدي أو بانقطاع الصلات وتباعد المكان أو الزمان، و «أتحدث» إليهم وأسمع منهم..

فأنا غالباً الحاضر الغائب في الجلسة، أشارك الآخرين حديثهم واهتماماتهم بعض الوقت، وأشرد بذهني بعيداً عنهم في أوقات أخرى، وأتراوح دائماً بين الحضور والغياب.. فإذا كانت الجلسة مثيرة لاهتمامي فأنا الحاضر أكثر الوقت والغائب بعض الوقت، أما إذا كانت لا تجذب اهتمامي أو لا تتفق مع أفكاري وشخصيتي وأضطر لشهودها للاعتبارات الاجتماعية أو العائلية، فأنا الغائب أكثر الوقت، والغارق في أفكاري وأشجائي وحواري الصامت مع نفسي.. وربما شجاري، أيضاً معها.

وبسبب هذا الشروء كم عانيت من متاعب.. وكم واجهت من مواقف محرجة حاولت أن أتغلب عليها بأقل قدر ممكن من الحرج الاجتماعي، كأنني أكرر في ذلك محنة التلميذ الشارد خلال الدرس حين يلاحظ المدرس شروءه، فيفاجئه بسؤال «غادر» عما كان يتحدث فيه، فيسقط في يده ويحار جواباً!

ومن سوء حظي أن الظروف الاجتماعية والمهنية قد فرضت عليّ أن أكون عضواً في أكثر من هيئة أو جمعية تعمل في مجال الخدمة العامة، فبما يلي إذا فاجأني نوبة الشروء والسرحان خلال حضوري إحدى جلسات هذه الجمعيات، وفاجأني أحد الحاضرين بطلب سماع رأيي فيما تجرى مناقشته من أمر لا أكاد أدري عنه شيئاً؛ وما أكثر ما تذكرت في مثل هذه المناسبات ما رواه أستاذنا الراحل توفيق الحكيم - وقد كان يعيش مع أفكاره أكثر مما يعيش بين الناس - حين كان وكيلاً للنائب العام وحضر إحدى جلسات المحكمة، ولم يلبث أن غاب بذهنه بعد قليل عن كل ما يجري فيها، إلى أن فوجئ بمفتش قضائي يدخل عليه الجلسة ويجلس إلى جواره على المنصة، وكان المحامي الذي يتراعى في القضية المعروضة لسوء حظ الحكيم - «سفيهاً» على حد قوله، فراح يكيل الهجوم للنيابة ويتهمها بالتخبط والارتجال وسوء التقدير، فغضب المفتش القضائي وطلب من وكيل النائب العام أن ينهض ليرد على المحامي ويدافع عن كرامة النيابة، وحرار الحكيم كيف يرد وهو لا يعرف موضوع القضية من الأصل، فحاول أن يتظاهر بالحلم وهو يلعن المحامي في سره ويتمنى أن ينهي مرافعته قبل أن يتأزم الموقف أكثر، لكن

هيات أن يحدث ذلك.. فلقد راح المحامي يواصل هجومه على النيابة، والمفتش يجذب وكيل النيابة من كفه بعصبية لينهض ويدافع عن كرامة النيابة ووكيل النيابة يتشبث بمقعده، ويتلفت حوله طالبا النجدة وتمنياً لو أشار المحامي عرضاً إلى موضوع القضية ليعرف عما يتكلم، ورئيس المحكمة -الذي كان يعرف جيداً عادات وكيل النيابة الفنان وشروده الدائم - ينظر إليه بإشفاق وإدراك لما يعانیه من الحرج.

وأخيراً لم يجد وكيل النيابة بعد أن ازداد إلحاح المفتش عليه سوى أن ينهض ويقول أية كلمة والسلام، فنهض على استحياء وقال: النيابة تحتج على هذه الكلمات التي وجهها الدفاع إليها!.. ثم جلس صامتاً.. فسارع القاضي الرحيم بنجدة صديقه الشاب ونظر إليه مبتسماً ثم قال: إن المحكمة ترجو من النيابة أن يتسع صدرها لحرية الدفاع. وأشار للمحامي كأنما يدعو له لأن يقول كلمة ينهي بها الموقف، فقال إنه لا يقصد أية إساءة للنيابة!

وتنفس وكيل النيابة الشاب الصعداء، ونظر إلى المفتش في انتصار وانتهت الجلسة بسلام، وإن كان المفتش قد فطن للموقف بعد ذلك وظل يتندر به سنوات طويلة.

فإذا كان حظي لم يفاجئني «بمفتش قضائي» يفضح شرودي وجهل بما يدور الحديث فيه خلال بعض مثل هذه الجلسات، فلقد واجهت موقفاً مشابهاً في إحداهما، وكنت قد تابعت مناقشاتها الروتينية لبعض الوقت، ثم استسلمت للشرود وقتاً لم أدرب على وجه التحديد، إلى أن فوجئت برئيس المجلس يوجه حديثه إليّ قائلاً:
وما رأي الأستاذ فلان في هذا الاقتراح؟!

فإن كنت أملك في ذلك الوقت أن أضحي بنصف عمري لكي أعرف ما هو هذا «الاقتراح» المطلوب رأيي فيه.. لما ترددت لحظة ولست أعرف هل وشى ارتبكي واحمرار وجهي بحقيقة موقفي أم لم يحدث ذلك؟.. لكنني وجدت رئيس المجلس على أية حال - وهو صديق قديم - ينظر إليّ في فهم، ثم يقول بلباقة إنه يطلب رأيي بالذات في هذا الأمر لأنه يعرف لي موقفاً محدداً بشأنه، ثم يعطيني طرف الخيط بلباقة مشيراً إلى جوهر الاقتراح، فأبدي رأيي فيه وفقاً لاجتهادي وينتهي الموقف بعد شيء من العناء!

لكنني تعلمت من هذه التجربة درساً هاماً هو ألا أغيب بذهني نهائياً عن «الموقف الراهن»، وأن أتروح دائماً بين «الحضور والغياب» في كل لحظة، فلا أغيب عما يجري حولي، ولا أركز ذهني وقتاً طويلاً في الشكليات التي لا طائل من ورائها.

وبدلاً من الشرود الكامل بعيداً عن المكان، فلقد استفدت من هوايتي القديمة في تأمل الأشياء والبشر وملاحظة تصرفاتهم، فإذا شردت عما يجري الحديث فيه لم يكن شرودي بعيداً عن المكان الذي يجمعني بالحاضرين، بل عن بعض ما يقولون فقط مما لا يثير اهتمامي، أما الأشخاص فأتاني أتأملهم وأتأمل سلوكياتهم وطريقة تعبيرهم عن وجهات نظرهم وانفعالاتهم، وتقفز إلى مخيلتي أحياناً وبعضهم

يتكلمون صورة هذه الشخصية العجيبة التي رسم معالمها الأديب الروسي العظيم «أنطون تشيكوف»، في قصته القصيرة الجميلة «الخطيب»، وهي شخصية «زابوكين» الذي قال عنه إنه كان موهوبا في ارتجال الخطب في المناسبات المختلفة، وبوسعه أن يخطب في أي وقت حتى ولو كان قد استيقظ لتوه من النوم، وأن خطبه فصيحة، لكنها طويلة جدا إلى حد أنهم - خاصة في أعراس التجار - كانوا يستعينون عليه بالشرطة لإيقافه عن الكلام!

فكثير من المتحدثين في المجالس المختلفة، أو حتى في الزيارات واللقاءات العادية، أشعر أنه «زابوكين» هذا.. لا مفر من الاستعانة عليه إلا بالشرطة لإيقافه عن الكلام لكي يدع للآخرين فرصة أن يتنفسوا أو يتكلموا إلى جواره.

وبعضهم أتأمل سلوكه وطريقة كلامه وتصرفاته باهتمام أكبر مما أسمع به كلامه أو أتفكر فيه.

وبعضهم أتذكر معه نصيحة الروائي الفرنسي «جوستاف فلوبيير» لصديقه وتلميذه الأديب «جى. دى. موباسان» حين سأله من أين يستمد أحداث وشخصيات قصصه؟ فأجابه فلوبيير: لاحظ.. ثم لاحظ.. ثم لاحظ!.. أي تأمل الأشخاص والأشياء والأحداث من حولك، واهتم بمعرفة التفاصيل وما يجري في كل مناسبة لكي تستعين بما لاحظته على ابتكار شخصيات قصصك وأحداثها.

وبعضهم أشعر بالحسرة لأنني لم أتعرف بهم، ولم أسمع لهم وأستفد بهم من قبل، وبعضهم أتمنى لو كانت الأقدار قد ترفقت بي ولم تجمع بيني وبينهم ذات يوم، ولم أدخل من الأصل في دائرة تنفسهم.

وبعضهم يذكرني بما قاله الحكيم الصيني «كونفوشيوس» من أنك إذا وجدت شخصا يستحق أن تتحدث معه ولم تفعل فقد فقدت رجلا ثميننا، وإذا وجدت شخصا لا يستحق أن تتحدث معه وخاطبته، فقد أضعت كلامك سدى، والعاقل هو من لا يفقد الرجال، ولا يضيع كلامه سدى!

وبعضهم يذكرني بكلمة «عمر بن الخطاب» الحكيم: لولا ذكر الله.. ولولا إخوة يلتقط منهم الحديث كما يلتقط أجود الثمر من الشجر لآثرت الموت على الحياة.

وبعضهم تعلمت من عيوبه أكثر مما تعلمت من محاسنه حين رأيت عمق كراهية الآخرين لهذه العيوب، فحاولت أن أجتنبها وألا أكررها بعد أن لمست كم يضيق بها الآخرون.. وكم ضقت أنا مثلهم بها.

وبعضهم تعلمت من صمتهم أكثر مما تعلمت من كلامهم حين رأيتهم يلتزمون الصمت عما لا يحسنون الكلام فيه، ولا يتكلمون إلا فيما يعرفون.

ولقد عمل الأديب الشاب موباسان بنصيحة أستاذه.. وحين مات فلوبيير تذكر موباسان نصيحته، فانشغل بملاحظة ما يجري خلال إعداد جثمانه وخلال إجراءات الوداع والجنائز ليستفيد بما لاحظته في قصصه فيما بعد لكنني لا «ألاحظ» الأشخاص أو الأحداث بمثل هذا الدافع الفني الحرفي، وإنما بإحساس الرغبة في فهم الأشياء والأشخاص فمشكلتنا الحقيقية في التعامل الإنساني هي

سوء فهم الإنسان لكثير من تصرفات وأفعال الإنسان، ونحن قد لا نفهم بعض هذه التصرفات والأفعال لأننا لم نبذل جهدا كافيا لفهمها ومعرفة دوافعها وتقدير ظروفها، ولم «نلاحظ» جيدا في الوقت المناسب الأشخاص والأشياء ولم نربط بين أجزائها المتناثرة لنفهم الدوافع التي تحركها أو تحكمها.

فإذا رأيتني محملا فيك لفترة طويلة فلا تظن أنني أنكر عليك شيئا أو غاضب من شيء فعلته، وإنما أنا «الاحظك» أولا، لكي أفهمك ثانيا، وأتجاوب مع أفكارك
ثالثا!

وإذا رأيتني شاردا بذهني بعيدا عنك فلا تظن أنني أتجاهلك أو أتعمد الإساءة إليك، فالحقيقة هي أنني أحاول أن أفهم أحداثا وقعت في الماضي القريب أو البعيد، وأستعيد في مخيلتي لأعرف ما فاتني إدراكه في وقتها، وأستعين على فهمها الآن بخبرة السنين.. وقد تكون أنت نفسك محور هذه الأحداث الماضية أو طرفا فيها، وقد يكون غيرك من الأشخاص هم أبطالها.. فإذا غبت عنك وأنت تتحدث معي الآن، فأنا «معك» في نفس الوقت ولكن في فترة سابقة من العمر!

والحوار الباطني مستمر في داخلي في كل الأحوال، سواء كنت وحدي أو مع الآخرين، وحديثي إليك وحديثك معي ليس في النهاية سوى استراحة قصيرة من هذا الحوار المتصل.

وهذه الأسفار الكثيرة إلى الماضي القريب أو البعيد هي أسفار هامة وضرورية «لحسم» بعض المواقف التي ما زالت معلقة في ذهن الإنسان، أو لإغلاق بعض الملفات التي ما زالت مفتوحة رغم مرور الأيام.

ولا مهرب للإنسان مع أن يعيش هذه الحياة المزدوجة طوال الوقت، والأمل فقط هو ألا تطول ساعات حياة الإنسان مع نفسه عن الحد المأمون الذي يحتمله، فيبدأ الشعور المؤلم بالوحدة والاعتراب النفسي عن المكان والزمان.

وفي كل الأوقات، فإن زحام البشر حولك أفضل كثيرا من وحدتك دونهم، حتى ولو كنت ترحل بذهنك بعيدا عنهم بعض الوقت أو في كثير من الأحيان!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يا حبيب المخ

هل تذكر أغنية «ليلي مراد» القديمة: «يا طبيب القلب بقيت حبيب القلب»؟

ثرى.. كيف يكون إحساسك بها حين تسمعها «مُعدّلة» على هذا النحو:

يا طبيب القلب.. بقيت حبيب المخ!

مؤكد أنك سوف تنفر منها وتعتبرها نوعا من الهذيان والسخف، فما بالك إذا عرفت أنها الحقيقة العلمية، التي يكون «الخيال» أجمل منها في بعض الأحيان؟ وما بالك أيضا إذا عرفت أننا نحب «بالمخ» وليس بالقلب، على عكس الفكرة الرومانسية الشائعة!

لقد سألوا جراحا عالميا للقلب منذ سنوات: ماذا يجد داخله حين يفتحه؟ فأجابهم بأنه لا يجد فيه شيئا سوى الدم والحجرات القلبية، وأن قلوب الناس كلهم متشابهة لا فرق فيها بين قلب الرجل وقلب المرأة، وأن القلب عضو عادي من أعضاء الجسم كالكبد والكلى، لكنه يختلف عنها في أنه أقوى عضلة في جسم الإنسان لأنها تعمل ٢٤ ساعة متصلة كل يوم، كما أنه أكثر الأعضاء حساسية لأنه العضو الداخلي الوحيد في جسم الإنسان الذي نحس به وبدقاته كل لحظة، وتنعكس عليه أكثر من غيره انفعالاتنا ومشاعرنا بالرغم من أنه ليس مركز الانفعالات، وإنما «المحطة» التي تتم فيها ترجمة هذه الانفعالات، فيدق القلب ويضطرب عند مواجهة انفعال معين كروية الحبيب، أو دخول الامتحان، وتنتظم دقاته ويسترخي في الأحوال العادية.

وتفسير ذلك أنه عند حدوث الانفعال يصدر المخ أوامره بإفراز كمية كبيرة من «الأدرينالين» الذي يؤدي إلى تغيرات عديدة بالجسم من أهمها زيادة سرعة القلب، وهو أسرع تغيير نحس نحن به، في حين تجري باقي التغيرات في الداخل ببطء أكثر.

ولا غرابة في ذلك، لأن مراكز الانفعال موجودة بالمخ وليس في القلب، وهي تتصل بالجهاز العصبي اللاإرادي في جسم الإنسان.. وحين نواجه موقفا يثير الانفعال فإنها تنفعل به، ويؤدي ذلك إلى تنبيه الجهاز العصبي اللاإرادي وتحدث استجابات الجسم لهذه الانفعالات، فتزداد سرعة ضربات القلب ويحدث الخفقان، وتزداد كمية الدم التي يضخها القلب أو تقل حسب نوع الانفعال.

وبسبب خفقان القلب واضطرابه عند الانفعال اعتقد الإنسان منذ قديم الزمان أنه يحب ويكره بقلبه وليس بعقله، مع أنه في الحقيقة يحب «بمخه» ويكره به أيضا، وأن جسمه يدفع ثمن انفعالاته المختلفة وليس القلب وحده هو الذي يستجيب لهذه الانفعالات.

فهذا الجهاز العصبي اللاإرادي يؤثر أيضا على حركة المعدة والأمعاء، فيزداد انقباض عضلات المعدة مع شدة الانفعال، وهذا هو آلام المعدة وتقلصات التي يشعر بها البعض في حالة الغضب أو الحزن الشديد، وتزداد نسبة الحامض الذي

تفرزه المعدة ويضطرب الهضم، فيحدث الألم بالتالي.. وقد يستمر التوتر فينهش هذا الحامض جدار المعدة ويحدث بها قرحة، وقد ينهش أيضا الاثني عشر ويحدث بها قرحة أخرى.

كما يتحكم هذا الجهاز العصبي أيضا في سرعة التنفس وفي انقباض أو ارتخاء الأوردة والشرايين، مما يؤدي إلى ارتفاع الضغط أو انخفاضه، بل إنه يتحكم كذلك في نشاط غدد الجلد وأوعيته الدموية فيحدث احمرار الوجه عند الخجل، ويشحب الوجه عند الخوف، وينتصب شعر الإنسان عند الفزع بسبب انقباض عضلات جذور الشعر.. لكن أسرع هذه الاستجابات وأوضحها للإنسان هو خفقان القلب واضطراب دقاته، لهذا فقد اتهم قلبه دائما بأنه المسؤول عن انفعال الحب، وراح يتشكى منه ومما يفعله بالإنسان.. فمنذ عصر المعلقات السبع في الجاهلية والشعراء يتهمون قلوبهم ويتشكون مما أوردتهم إليه من موارد الحب والعذاب.

وفي مطلع المعلقة السادسة لـ «علقمة بن عبدة بن النعمان بن القيس» يتشكى الشاعر من قلبه الذي لا يقتنع بعامل السن والمشيب وما زال يهفو إلى الحسان، فيقول:

طَاحَ بِكَ قَلْبٌ فِي الْحِسَانِ طَرُوبٌ

بُعَيْدَ الشَّبَابِ عَصَرَ حَانَ مَشِيبٌ

«وطحا» معناها في المعاجم: بعد أو طوخ في كل ناحية، أي أن قلب الشاعر ما زال يطوخ به في كل اتجاه جريا وراء الحسان بغير اعتبار لشيخوخته.

وفي الآداب الغربية نجد نفس الشيء أيضا منذ قديم الزمان وحتى الآن، فالشعراء والأدباء يتحدثون عن قلوبهم وليس عن «أمخاهم» حين يكتبون عن الحب والمشاعر العاطفية والإنسانية، ويعاتبون «القلب» حين يعانون عذاب الغدر، ويمدحونه حين ينعمون بسعادة الحب.. فإذا كانت الحقيقة العلمية تؤكد لنا أن المخ هو مركز العواطف والانفعالات وليس القلب، فكيف نفسر إذن بعض حالات الحب والكره التي تستعصي على أي تفسير عقلائي أو منطقي ولا نجد - في نهاية المطاف ما نفسرها به سوى أنه «القلب» الذي لا يخضع أحيانا لأحكام العقل!

وكيف نفسر - مثلا - غرام «جوتة» شاعر الألمان الأعظم وهو في الواحدة والثمانين من عمره بفتاة عمرها 18 عاما وعشقها هي له، وقد أصيب بالالتهاب الرئوي بعد أن عرفها بعام فمات في الثانية والثمانين، وبكته هي بالدمع السخين وأعلنت الحداد لوفاته لفترة طويلة من بعده.

هل يسعفنا «المخ» حقا بتفسير مقبول لهذه العلاقة العاطفية الفردية؟

وهل يسعفنا أيضا بتفسير آخر لقصة الفتاة «فردريك بريون» ابنة الأستاذ الذي علم «جوتة» الرقص في مدينة «ستراسبورج» فالتقى بها بالصدفة خلال نزهة في غابات «سانسايم»، وكانت هي في السادسة عشرة من عمرها زهرة تتفتح للحب لأول مرة، وكان هو في العشرينيات من عمره.. فأحبها على الفور وأحبته

بجنون، حتى صرخت فيه مرة هاتفة من أعماق قلبها: ملعونة هي المرأة التي تقبلها من بعدي!

وكانت تتعذب بالغيرة عليه من شقيقتها التي تزاحمها في حبه، وكتب عنها «جوتة» إحدى روائعه الشعرية بعنوان «لقاء.. ووداع»، ثم فرقت الأيام بينه وبينها، فاحتفظت له دائما بأعمق مشاعر الوفاء، وطلب يدها كثيرون من بعده فرفضتهم جميعا قائلة إن من أحبها «جوتة».. لن تكون لأحد من بعده!

وعاشت بعد ذلك سنين طويلة لدى شقيقتها بلا زواج، حتى قرأت الفصل الذي خصها به «جوتة» في كتابه «شعر وحقيقة» ورحلت عن الحياة مطمئنة إلى مكانتها في قلب معبودها العظيم.

وجاء شاعر نمساوي هو «لودينج إيكارت» فحفر على شاهد قبرها بغابات «سانسايم» هذا البيت من أشعاره:

شعاع من شمس الشاعر هبط إليها فمنحها الخلود!

بل كيف نفسر قصص الغرام المشبوب التي يضطرب معها «العقل» نفسه كما حدث لطيب الذكر «قيس بن الملوح» وقد سئل «الأصمعي» عن جنونه فقال: لم يكن مجنونا، وإنما كانت به لوثة أحدثها العشق فيه.

لقد ترفق به أبوه حين ابتلى بحب ليلي، فذهب مع إخوته وبني عمه وأهل بيته إلى أبي ليلي يسألونه بحق صلة الرحم والقرباة أن يزوجه منها، فأبى قائلا: والله لا حدثت العرب أي زوجت عاشقا مجنونا..

فنصح الناس أبا قيس أن يخرج به إلى مكة ويعود به بيت الله الحرام لعل الله يشفيه مما ابتلى به، ففعل.. ورافقه إلى مكة ودخلا إلى البيت الحرام، فقال لابنه المعذب: تعلق بأستار الكعبة وقل اللهم أرحني من ليلي وحبها، فتعلق بأستار الكعبة كما طلب منه أبوه لكنه قال:

اللهم منَّ عَلَيَّ بليلى وقربها!

فضربه أبوه، فأنشده قيس أبياتا توجع «القلب» (لاحظ الخطأ العلمي) عن عذابه الذي لا حيلة له فيه، ومنها:

وَكَمْ قَانِلٍ قَدْ قَالَ تَبَّ فَعَصَيْتُهُ

وَتِلْكَ لَعْمَرِي تَوْبَةٌ لَا أَتُوبُهَا

فَيَا نَفْسُ صَبْرًا لَسْتَ وَاللَّهِ فَاعْلَمِي

بِأَوَّلِ نَفْسٍ غَابَ عَنْهَا حَبِيبُهَا

ورق قلب الأب لابنه، وأخذ بيده نحو جبل «منى» لرمي الجمار، فبينما هما سائران إذ سمع قيس مناديا ينادي من بعض الخيام:

يا ليلي!.. فخرٌ مغشياً عليه، وأفاق مصفر الوجه فوجد أهله يحيطون به في
إشفاق، فأنشد:

دَعَا بِاسْمِ لَيْلَى غَيْرَهَا فَكَأَنَّمَا

أَطَارَ بِلَيْلَى طَائِرًا كَانَ فِي صَدْرِي

دَعَا بِاسْمِ لَيْلَى أَسَخَنَ اللَّهُ عَيْنَهُ

لَيْلَى بِأَرْضِ الشَّامِ فِي بَلَدِ قَفْرِ

ناهيك عن «شهيد الغرام» في «رومي و جولبييت» التي صاغها شاعر
الإنجليزية «شكسبير» عن قصة حقيقية جرت في إيطاليا في العصور الوسطى،
وغيرها الكثير من قصص الحب والغرام التي لا مكان للعقل فيها.. فهل يسعفنا
«المخ» حقا بتفسير مقبول لمثل هذه القصص التي تتعارض - أصلا - مع أحكام
العقل؟.. بل هل يسعفنا أيضا بتفسير مقبول لبعض قصص الكراهية غير المفهومة
في العلاقات الإنسانية، وقد يقع بعضها لغير سبب منطقي معقول؟

لقد كنا نحيل كل ما نعجز عن تفسيره تفسيراً منطقياً من شؤون العاطفة والعلاقات
الإنسانية إلى «القلب» الذي لا يتقيد في كثير من الأحيان بالمنطق العقلي، وما
زلنا نقول حتى الآن إن الإيمان هو التصديق بالقلب، وإن المؤمن يصدق بقلبه
أولاً.. ثم يفتش في عقله عن أسانيد منطقية لما آمن به.

ونقول إن «قلوبنا» قد اطمأنت لإنسان نراه لأول مرة وشعرنا بالارتياح إليه من
الوهلة الأولى، مع أنه لم يفعل أي شيء يبرر لنا الاطمئنان إليه.. وقد نشعر
بالنفور منه والضيق به مع أنه لم يفعل - أيضا - أي شيء ينفردنا منه.

أذكر أنني سألت - ذات مرة - فتاة في العشرين من عمرها لا يتجاوز تعليمها
المرحلة المتوسطة: لماذا نفرت من شاب تقدم إليها حين رآته لأول مرة، ولم تقبل
به أو تعطه أية فرصة للاختبار بالرغم من أن ظروفه مثالية بالنسبة لها وهي
شديدة اللهفة على الارتباط والزواج؟ فأجابتنى إجابة لم أنسها حين قالت: مهما
أجهدت نفسك فلن تعرف أبداً لماذا استرحت لإنسان تراه لأول مرة، أو لماذا نفرت
منه؟

وما قالتها صحيح، ويحيلنا مرة أخرى إلى القلب، وإلى مسألة تألف الأرواح
وتنافرها التي أشار إليها الحديث الشريف: «الأرواح جنود مجندة.. ما تألف منها
انتلف، وما تنافر منها اختلف»، وهي المسألة نفسها التي تعبر عنها الفتاة أو
السيدة الآن بلغة عصرية حين تقول لك عن زوج وخطيب لم تتألف معه: إنها
اكتشفت أنهما لا يتراسلان على موجة لاسلكية واحدة، وأن كلا منهما يتراسل
على موجة منفصلة لا تصل إلى الآخر!

فأين «المخ» من كل ذلك؟

وما دور «القلب» فيما نعجز عن تفسيره من شؤون النفس والهوى والعاطفة،
وهو كما علمنا لا شأن له إلا بضخ الدم في شرايين الجسم؟

لا تفسير إذن سوى أننا نعبّرُ به تعبيراً مجازياً عن مركز الانفعالات والأحاسيس في المخ، وأن «كيوبيد» حين يوجه سهامه إلى المحبين فإنه يرشقها في هذا المركز من المخ، وليس في القلب الذي لا يحتوي إلا على الدم والحجرات القلبية.

ومن حسن الحظ أننا نفعل ذلك، ونرسم القلوب في أوراقنا ورسائلنا الغرامية حين نحب حتى ولو كان ذلك خطأ علمياً، إذ تخيل معي محبا يكتب إلى حبيبته رسالة حب ملتهبة، فيزينها برسم للمخ وتجاويفه وتلافيفه المنفرة، وكلها أبعد ما تكون عن الرومانسية والخيال الجميل!

نعم.. نحن نحب «بمخنا»، ونكره ونحْنُ إلى من غابوا عنا أو فارقونا به.. ونشعر بالحنين إلى أيام البراءة والشباب والعمر الجميل بهذا المخ الذي يختزن في تلافيفه ذكرياتنا القديمة ومشاعرنا وانفعالاتنا وكل شؤون النفس والوجدان.. لكن كل ذلك لن يغير أبداً من احترامنا «للقلب» ومكانته العاطفية عندنا، ولن يأتي يوم - مهما فعل العلماء - يغني فيه عاشق مع «أم كلثوم» فيقول:

أفرح يا «مخي» لك نصيب

تنول مُناك ويا الحبيب!!



امراة.. على المعاش

كتبت إليّ من إحدى مدن الإمارات تعلق على مقال لي بعنوان «شتاء الأحران» وتروي لي قصتها.. فقالت ترددت في أن أكتب لك هذه الرسالة لأبتك فيها ما أعانيه من الوحدة والغربة والألم والخوف.. فلقد قلت في «مفكرتك الزرقاء» إن كل إنسان وحيد يعيش شتاء أحرانه ولو كان في شرح الشباب فكيف يكون الحال إذن مع امرأة مطلقة تجاوزت الخمسين وبلا أهل ولا أولاد تحتمي بدفء مشاعرهم من برد الشتاء؟

لقد تم طلاقي من زوجي منذ حوالي عام بعد أن عشت معه سنوات عديدة بغير أن أنجب منه أطفالا، ولم أكن المسؤولة عن عدم الإنجاب فقد كنت الزوجة الثالثة له وكلنا لم ننجب منه، وحين تزوجته كنت شديدة اللهفة على أن أنجب منه طفلا يحقق له أمنيته ونسعد به معا.

لكن السنوات مضت بغير أن تلوح بادرة أمل في الإنجاب.. فحاولت اصطحابه إلى أحد الأطباء المختصين ليعرض نفسه عليه، فرفض ذلك بشدة، وأشعرني أنني قد جرحت بهذا الاقتراح كبرياءه، فقدمت على محاولتي وقررت ألا أفاتحه في الأمر مرة أخرى، وكتمت مشاعري وانطويت على رغبتني الصامتة في الإنجاب ورضيت بما اختاره الله لي، وكرست جهدي لرعاية زوجي.. وأحببته حبا فوق كل خيال، وحاولت أن أكون له الزوجة والأم والأبناء والأهل.. فمضت سنوات حياتنا هادئة بلا مشاكل إلى أن حدث شيء كنت أظن أنه مألوف في حياة كل امرأة ولا يغير في حياتها مع زوجها شيئا.. فقد بلغت يا سيدي سن اليأس ولم يعد هناك أي أمل في أن أنجب.. وتصورت أن ذلك سوف يعمق من روابطي بزوجي ويمحو آخر سبب لاستشعاره للنقص بعد أن أصبحت مثله غير قادرة على الإنجاب كما كان هو دائما بدليل أنه ينجب من زوجتيه السابقتين ومني.. لكن ما حدث فاق كل توقعاتي.. فلقد انقلبت حياتي معه بعد انقطاع الدورة الشهرية عني رأسا على عقب، وبعد فترة قصيرة من الاضطراب قرر أن ينهي حياته معي، فطلقني وتركني وحيدة في الغربة بلا أهل ولا أبناء ولا شباب ولا أي شيء سوى صبري وإيماني بالله عز وجل وتسليمي بقضائه وقدره.. وأنا الآن يا سيدي أعيش أيامي في وحدة قاسية أتجرع مرارتها كل ساعة وكل لحظة، فأعمل في محلي الذي أديره بنفسي، ثم أصعد إلى مسكني في نفس البناية فتحاصرني الوحدة والضيق وأشباح الذكريات منذ اللحظة التي أدخله فيها حتى أغادره.. وقد تغير إحساسي به بعد طلاقي مع أنه مرتب هادئ ومريح.. لكنه لم يعد نفس البيت الذي كنت أحبه من قبل، فكل شيء فيه يذكرني بما كنته في أيام السعادة والزواج والتفتح للحياة، وبما أصبحت عليه الآن في أيام الوحدة والعزلة وانقطاع الرجاء، ولم أستطع بكل أسف أن أغير مسكني لقربه من عملي.. وبقيت فيه وكل ركن من أركانه يذكرني بحالي..

والغريب أنني أبدو رغم تجاوري الخمسين أصغر من سني بكثير، حتى لقد كان كثيرون يشفقون عليّ من زواجي بزوجي الذي كان يكبرني في السن، كما أنني

لازلت محتفظة بمظهري مما يدفع كثيرين لإبداء رغبتهم في الزواج مني، لكنهم جميعا للأسف أصغر مني.. ولم أستطع مصارحة أحدهم بالحقيقة المرة وهي أنني أكبر منه، كما لم أستطع قبول أحدهم رغم حاجتي لمن يخفف عني وحدتي، ثم زاد حرجي حين فكرت إحدى معارف أن تزوجني من أحد أقارب زوجها.. ثم ترددت في ذلك لاعتقادها أنه يكبرني بكثير ولأن له ابنتين في المرحلة الإعدادية ولأنه يرغب في أن يتزوج من امرأة تتحمل مسؤولية تربيتهما، ولم أستطع أن أصارحه بحقيقة أمري.. وبأنني ربما كنت أكبر منه سنا أو بأني أتوق إلى أن أربي هاتين الابنتين لأعوض بهما حرمانني من الأطفال وأشبع فيهما أمومي المكتومة، فضاعت هذه الفرصة كما ضاع غيرها من فرص الحياة.. وبقيت وحدي وأواجه أيام الجفاف والخواء.. ولا شيء في حياتي سوى الوحدة والأحزان واجترار الذكريات.

هذه هي الرسالة التي تلقيتها من قارئة مقيمة بإحدى مدن الإمارات.. فرأيت فيها صورة جديدة لما يسميه البعض خطأ مشكلة سن اليأس، والأصح هو أن نسميه «أزمة منتصف العمر».

فالبعض - رجالا ونساء بكل أسف - يتصورون أن بلوغ المرأة سن التوقف عن الإنجاب هو قرار بإحالتها إلى المعاش.. بل إن بعض السيدات يتعاملن نفسيا مع هذه السن بهذا الفهم الخاطئ فيتصورن أن دورهن في الحياة قد آذن بالانتهاء لمجرد حدوث بعض التغيرات البيولوجية التي تنهي عندهن القدرة على الحمل والإنجاب..

وليس هناك أظلم للمرأة وللرجل أيضا من هذا الوهم الخاطئ ولقد اهتم علماء النفس بمحاولة تفسير أسبابه فتوصلوا إلى أن الرجل عندما يبلغ المرحلة التي تتراوح بين 45 و50 عاما من عمره يبدأ في الإحساس بأن السنوات المتبقية من عمره أقل من تلك التي عاشها، ويزداد هذا الشعور عنده كلما توالى عليه أسماء الراحلين من زملائه وأصدقائه.. فيستشعر الوحشة التي يحسها المسافر في سيارة عامة حين يتوالى نزول الركاب منها في محطة بعد محطة فلا يبقى فيها سوى قلة اقترب موعد نزولهم وساد المكان ظل كثيب بعد أن كان يضج بالحياة والصخب والمرح في بداية الرحلة!

وكرد فعل طبيعي لهذا الإحساس المؤلم يصبح الزوج عصيبا قلقا، وقد يحاول أن يهرب منه بالتغيب عن البيت كثيرا مدعيا الانشغال في العمل، وقد يتورط في بعض الحالات في مغامرة عاطفية يحاول أن يثبت بها لنفسه أنه مازال نفس الرجل الذي كان، كما قد تظهر عليه بعض مظاهر الاهتمام بالنفس.. والرغبة في الاستزادة من الحنان والعطف والتدليل من جانب زوجته.. أما المرأة فنتيجة للتغيرات الهرمونية التي تتعرض لها فإنها تصاب بتذبذب في العاطفة وبالحساسية الشديدة والتوتر والقلق، وتهاجمها نوبات من البكاء والحزن وقلة النوم، وربما تتعرض لبعض الأعراض الجسمية كسرعة ضربات القلب والدوخة وآلام الصدر، إلى جانب إحساسها الخاطئ بنهاية حياتها من ناحية الخصوبة والقدرة على الإنجاب، كما تعاني غالبا من عدم الاطمئنان الذي يساورها بالنسبة لزوجها والميل للشك في علاقاته.

والناس دائما أعداء ما جهلوا، فلو أننا عرفنا طبيعة كل مرحلة من مراحل العمر واستعدنا لها بالفهم الصحيح لتجنبنا الكثير من المعاناة، ولساعدنا أنفسنا على تفادي أشواكها، ولاستطعنا الاستمتاع بما لكل مرحلة من جمال..

وعلماء النفس الذين يكرهون تسمية هذه المرحلة التي تشهد بعض التحويلات البيولوجية عند المرأة بسن اليأس، يفضلون تسميتها بأزمة منتصف العمر، ويشركون فيها المرأة والرجل معا، وإن كانت أعراضها بالنسبة للرجل تتزايد بعد بلوغه الستين. والأزمة إنما تعني التحدي الذي لا بد للإنسان أن يواجهه وأن يصمد له ويجتازه.

وكثير من حوادث الانفصال التي تحدث في هذه السن تقع بسبب سوء فهم الزوج لأسباب التوترات النفسية التي تعانيها زوجته في هذه المرحلة، والتي تتطلب أن يكون أكثر فهما لها وأكثر حكمة في التعامل معها.. فبدلا من الاستجابة لهذه التوترات بتوتر أشد، ينبغي أن يقترب منها أكثر وأن يتسامح مع توتراتها، وأن يشعرها بأنها مازالت الملكة التي كانت قبل هذه الأزمة.. لأنه إذا تحالفت عوامل العصبية التي تنتابها مع سوء فهم الزوج لطبيعة الأزمة تحطمت روابط الأسرة على صخرة الشقاق والخلاف..

وأنتصور يا سيدتي أن ذلك كان أحد أسباب إقدام زوجك على هدم روابطه معك.. كما أنتصور أيضا أن ميل الإنسان الغريزي لعدم الاعتراف بأي نقص فيه كان سببا أساسيا آخر لمبادرته بهذا الطلاق لكي يثبت لنفسه وللآخرين أنه القادر على الإنجاب، لكن زوجته هي التي لم تعد قادرة عليه.. مكررا بذلك أسوأ ما في النفس البشرية من رغبة خفية في اتهام الآخرين بما يخشى الاعتراف به في مواجهة الغير، مع أن القدرة على الإنجاب ليست وساما من حق أحد يفتخر به، وإلا كانت الثيران أحق بالفخر من الإنسان تماما كما أن الحرمان من القدرة على الإنجاب ليس قصورا يحسب على أي إنسان.. لأنها أولا وأخيرا أقدار لا فضل فيها لأحد ولا ذنب..

ولقد كان ما كان ولم يعد يجدي الآن أن نعرف من المخطئ أو المصيب.. وإنما المهم أن نتوافق مع أقدارنا وأن نسعى إلى تغيير ما نستطيع تغييره من ظروفنا غير الملائمة.. وأن نهيب أنفسنا لقبول ما لا نستطيع تغييره منها، وأن نسأل الله دائما أن يهبنا الحكمة لكي نفرق بين ما نستطيع وما لا نستطيع تغييره لكيلا نتعذب بنطح الصخر والسير وراء السراب..

وفي ظروفك فإنك لا تستطيعين تغيير حقيقة أنك قد بلغت مرحلة منتصف العمر، وهي بداية الحياة الحقيقية للرجال والنساء في المجتمعات المتحضرة حيث يكون كل منهما قد اكتسب خبرات ثمينة في فهم الطرف الآخر وقدرة أكبر على الاستمتاع بالحياة بما توفر لهما من إمكانيات مادية خلال كفاح السنين، وبما توافر لهما من علاقات اجتماعية واسعة وفهم أفضل لحقائق الحياة واستعداد أكبر للتجاوز عن التفاهات التي كانت تفسد عليهما أيامهما في الماضي، كأنما يقولان الفيلسوف الذي قال: «هيا ننهض أيها الإخوان فقد طال جلوسنا فوق التوافه!».

وفي رواية «رجل الأقدار» للأديب والمفكر الفرنسي «أندريه مالرو» يقول أحد أبطالها: «إن تسعة أشهر ليست كافية لصنع إنسان، وإنما يحتاج الأمر إلى خمسين عاما من العناية والتضحيات والإرادة وأشياء أخرى حتى يكتمل صنعه ويصبح إنسانا ليس فيه شيء من آثار الطفولة والمراهقة».

وهذا صحيح تماما، فبلوغ الإنسان سن الخمسين وتجاوزها ليس حقيقة مأساوية.. كما أنه أولا وأخيرا حقيقة ليس في مقدوره أن يغيرها، لكنك بكل تأكيد تستطيعين أن تغيري من ظروف حياتك التي صاحبت بلوغك هذه المرحلة الناضجة من العمر.. وأعني بها الوحدة والاعتراب والإحساس بمرارة الخذلان.. تستطيعين أن تتزوجي، بل لابد أن تفعلي في مثل ظروفك، فالغربة مع الوحدة والانعطاف عن الأهل ظروف يشق احتمالها على الرجال.. فكيف بسيدة مثلك؟ إن هناك دائما زوجة ملائمة لرجل في مرحلة معينة من العمر، وزوجا ملائما لامرأة في مرحلة معينة من عمرها، لكن الأهم كيف يهتدي كل منهما إلى الآخر؟ وامرأة في الخمسين بلا أولاد هي الزوجة المثالية لأرمل في مثل عمرها أو أكبر قليلا يحتاج لمن يشاركه رعاية أولاده، أو لمطلق في نفس الظروف، أو لوحيده فاته قطار الزواج ولم تعد له رغبة في الإنجاب، أو لزوج هجرته وزوجته وكبير أولاده وانشغلوا بحياتهم عنه ولم يطلقها حفاظا على الشكل الاجتماعي ورعاية لمشاعر الأبناء رغم انفصاله عنها.

والإنسان في هذه المرحلة من العمر يحتاج إلى ما يسمى «بزواج الإيناس».. الذي يجد فيه شريكا يؤنس وحدته ويشاركه اهتمامات الحياة الصغيرة ويحتسي معه قهوة الصباح وشاي العصر.. ويتبادل معه الرأي حول غلاء الأسعار وأخبار الدنيا وأخلاق الجيل الجديد.

والاهتداء إلى زوج مناسب أو زوجة مناسبة في كل مرحلة من العمر ليس شيئا صعب المنال إذا اعترف الإنسان لنفسه أولا بحقيقة عمره ولم ير فيه ما يدعوه للاستخزاء.. بل للفخر به.. لأنه بالفعل من أهم مؤهلاته لكي يكون الشريك الملائم لمن يحتاج إلى شريك مناسب.. له وبغيره قد تتراجع فرصته في الزواج، ولعلك أنت شخصيا يا سيدتي قد لمست ذلك حين ترددت صديقتك في ترشيحك لقريبها اعتقادا منها أنه يكبرك بكثير، وبعض أسباب شقاء الإنسان ترجع أحيانا إلى غموضه وإلى حرصه على أن يحيط نفسه بالأسرار الغامضة فإذا ما تخلى عنها واستخدم لغة واضحة في حياته فلربما تخفف من كثير من متاعبه.. فإذا كان الأمر كذلك فليكن هدفك واضحا ولغتك في الوصول إليه واضحة.. وصارحي من تثقين فيهم بكل شيء عنك وأول ذلك حقيقة عمرك واعتزازك ببلوغك هذه المرحلة من العمر ورغبتك المشروعة العادلة في الاهتداء إلى شريك حياة ملائم ليشاركك سنوات النضج والخبرة والفهم الصحيح للحياة.. ولا بأس بأن يصغرك سنوات قليلة.. ولا بأس بأن يكبرك حتى عشر سنوات، فهذه كلها مرحلة واحدة من العمر لها نفس الخصائص والسمات، وليس لفارق السن البسيط فيها أي تأثير سلبي على علاقات الطرفين وبعدها لن يطول انتظارك ولا انتظار غيرك إن شاء الله إن

تخلوا عن الإحساس بالتقاعد والإحالة إلى المعاش وانتهاء الدور لمجرد أنهم قد
بلغوا سن اكتمال صنع الإنسان!



رسائل اب الى ابنه [1]

ترى ماذا يستطيع أب أن يقول لابنه إذا كتب إليه عددا من الرسائل الطويلة الصادقة؟

إن كل أب يريد أن يقول لابنه الكثير والكثير.. ولكن ما «يستطيع» أن يقوله له يختلف إلى حد كبير عما «يريد» أن يقوله.

لهذا فقد تكون «الرسائل» وسيلة مريحة في بعض الأحيان لكي يتمكن الأب من أن ينفس من خلالها عما يعتل داخله من أفكار وهواجس وأمنيات تجاه ابنه.. بل لعل وسيلة الكتابة إلى الابن قد أصبحت في بعض الأحيان الوسيلة المناسبة للتواصل معه، سواء بقصد أن يقرأ الابن ويشعر بما يتفاعل في أعماق أبيه تجاهه من مشاعر ومخاوف وآمال، أو بقصد أن يطلق الأب العنان لخواطره الحبيسة التي قد لا يجد أحيانا الشجاعة النفسية لأن يبوح بها لابنه، أو لا يجد في أحيان أخرى استعدادا كافيا لدى الابن لأن يستمع إليها في هذا العصر الذي ينطوي فيه الأبناء على أفكارهم وخواطرهم بعيدا عن الآباء والأمهات، أو في هذا العصر الذي يتوجه فيه الأبناء بنجواهم وصدقاتهم إلى غير الآباء والأمهات بغير أن يدركوا - للأسف - كم يتلف الأب على أن يفتح له ابنه صدره ويشركه معه في خواطره وأشجانه وأحلامه.

لقد أصبح بعض الأبناء يعيشون حياتهم الآن بين ذويهم وكأنهم مغتربون عنهم في أرض بعيدة، بل إن الاغتراب النفسي أشق على الآباء من الاغتراب المكاني، لأن شخص «المغترب» شاخص أمام من يتلف على الاقتراب منه، لكنه بعيد عنه بأفكاره وأشجانه وخواطره كأنما قد فرقت بينهما المحيطات والبحار!

كما أن بعض الآباء يشكون الآن من جفاف مشاعر أبنائهم تجاههم وعجزهم عن إدراك عمق احتياج هؤلاء الآباء والأمهات نفسيا وعاطفيا إلى قرب الأبناء منهم.. قربهم الوجداني، وليس المكاني.. لكن القلوب الشابة لا تدرك ذلك للأسف في غمرة فتوتها وانشغالها بمباهج الشباب، ولا تتجاوب مع هذا الاحتياج العاطفي المؤلم لدى الآباء والأمهات، وقد لا تستشعره من الأصل في بعض الأحيان، وهذه هي المأساة.

قال لي صديق إنه يشعر بالأسى لابتعاد ابنه عنه رغم كل محاولاته للاقتراب منه والاحتفاظ بصدافته، ثم تأوه متألما وهو يقول لي: هل تصدق أنني أتسقط أخبار ابني من بعض أصدقائه لأنه يتخفى بها عني وعن أمه وشقيقه الأصغر كأنها سر حربي لا يريد لأسرته أن تعرفه، ويخص بها في نفس الوقت أصدقاءه ومعارفه دون أبيه وأمه؟

وشكا لي أب آخر من إحساسه المؤلم بالخجل حين يشعر باللهفة على أن يتسامر معه ابنه حين تجمع بينهما بعض أوقات الصفاء الشحيحة، فيجد نفسه هو الذي يبادر ابنه دائما بالكلام والسؤال، وباللهفة على الحديث إليه، وابنه يكتفى كل مرة

بالإجابة المتحفظة على أسئلته وبكلمات مقتضبة على قدر السؤال، فكانما يستجوبه فيجيب مضطرا، أو يستنطقه فينطق وهو كاره!

فلماذا هذا الجفاء والصمت القاتل المريب بين بعض الأبناء وآبائهم وأمهاتهم؟ ولماذا يعتقد بعض الأبناء أن بلوغهم سن الشباب يتناقض مع اقترابهم من آباءهم وأمهاتهم والبوح لهم بنجواهم وخواطرهم وشجونهم؟!!

إن صمت الأطفال - كما يقول الروائي الروسي «ديستوفسكي» في روايته الممتعة «المساكين» - خروج على الطبيعة، لأن الطفولة لعب ومرح وانطلاق، ومن المؤلم حقا أن يصمت الأطفال ويستغرقوا في التفكير بدلا من أن يستغرقوا في اللعب والضحك!

فإذا كان صمت الأطفال مؤلما عند «ديستوفسكي» - وهو كذلك في الحقيقة - فإن صمت الأبناء في سن الشباب مع آباءهم وأمهاتهم أشد إيلاما للمشاعر وأكثر جرحا للقلوب، لأنه خروج أيضا على طبيعة العلاقة التي ينبغي أن تقوم بين الآباء والأمهات وبين الأبناء، ولأنه أيضا إعلان صامت من هؤلاء الأبناء أنهم قد «نفوا» آباءهم وأمهاتهم من دنياهم وحكموا عليهم بالبعد القسري عنهم. ولقد أثار هذه الخواطر لديّ كتاب فريد وقع في يدي لفترة محددة «اِخْتَلَسَتْهُ» خلالها لنفسي.

وأصل الحكاية أنني قد تلقيت رسالة من قارىء عمره ٨٢ عاما، يقول فيها إنه قارىء كهل، وله أمنية صغيرة هي أن يعيد قراءة بعض الكتب الثمينة التي قرأها في شبابه وكانت تضمها مكتبته، ثم ضاعت منه خلال رحلة العمر ولم يستطع تعويضها. ونشرت رسالته في بريد الأهرام بعنوان «أمنية القارىء العجوز»، فلم تمض على نشرها ساعات إلا واتصلت بي السيدة «نوال المحلاوي» مديرة مركز الأهرام للترجمة والنشر - لتقول لي إنها قد قرأت هذه الرسالة وتأثرت بأمنية هذا القارىء الكهل وقررت أن تحققها له، فأرسلت مندوبا يطوف بمكتبات القاهرة القديمة ويبحث عن هذه الكتب المطلوبة لإرسالها إلى القارىء.

وفي اليوم التالي أرسلت إليّ ما استطاع مندوبها العثور عليه من هذه الكتب، فكان من بينها كتاب يسمى (من والد إلى ولده) بقلم «أحمد حافظ عوض»، صاحب جريدة «كوكب الشرق»، وعضو البرلمان المصري القديم.

وما أن رأته حتى قررت تأجيل أداء الأمانة لصاحبها لمدة يومين فقط لأقرأه خلالهما قبل إرسال الكتب للقارىء الكهل، واستغرقت في قراءته هذين اليومين باستمتاع شديد، وقاومت بصعوبة أشد هواتف النفس الأمارة بالسوء التي وسوست لي أن أقوم بتصوير هذا الكتاب وإرسال الصورة إلى القارىء مع بقية الكتب، والاحتفاظ لنفسي بالأصل النفيس الذي صدرت طبعته الثانية سنة ١٩٢٦ م. غير أنني تغلبت أخيرا على هذا الوسواس الخناس وأرسلت الكتاب مع بقية الكتب إلى القارىء الكهل، ولكن بعد أن كنت قد اختزنت في عقلي وذكريتي وأوراقه أهم ثماره وأزهاره.

فأما الكتاب فلقد تصدره بيت الشعر القديم الشهير:

وإنما أولادنا بيننا أكبادنا تمشي على الأرض

وقد قدم لطبعته الأولى ابن المؤلف الشاب، فقال في كلمته:

هذه مجموعة رسائل كان يبعث بها إليّ والدي من مصر وأنا طالب في الكلية الأمريكية في بيروت، وقد حرصت عليها طوال هذه السنين حرص البخيل على درهمه! وما كنت أظن أن هذه الرسائل ستنشر في كتاب، كما أن والدي لم يكن يفكر وهو يبعث بها إلي من القلب إلى القلب أنها ستعرض على الأنظار وتقدم للناس في مختلف البقاع والأمصار، فأنا - بكل أدب ووجل - أقدم هذه الرسائل الخاصة إلى أهل الفضل وعشاق الأدب وطلاب الحقيقة أينما وجدت.

ولقى الكتاب عند صدوره رواجاً مفاجئاً أذهل مؤلفه نفسه ونفدت - كما قال في تقديمه للطبعة الثانية - نسخ الكتاب بسرعة غير مألوفة في عالم المطبوعات العربية، فأعاد طبعه وضم إليه كلمات التفريط والاستحسان التي تلقاها من أئمة الفكر والأدب في زمانه، ومنهم «محمد المويلحي» و «مصطفى لطفى المنفلوطي»، و «عبد العزيز البشري»، و «عباس محمود العقاد»، و «إسماعيل مظهر»، وشاعر القطرين «خليل مطران»، والأديبة «مي زيادة» وغيرهم.

وأما رسائل الكتاب التي يصفها الابن بأنها قد صدرت من القلب إلى القلب، أو بمعنى أصح من القلب إلى ثمرته الحبيبة، فلقد بدأها كاتبها برسالة عن دوافعه لكتابة هذه الرسائل إلى ابنه، يحدثه فيها عن عاطفة الحب الأبوي، فيقول له: «لقد خبرت العواطف على جميع درجاتها وأصنافها، فلم أجد عاطفة أقوى تملكا للنفس وتمسكا بالحس من الحب الذي شعرت به نحوك منذ أن ولدت إلى اليوم».

ويستعيد إلى ذاكرته بطاقة التهنية التي تلقاها من صديق أديب بمناسبة مولد هذا الابن، فيتأمل من جديد كلماتها المعبرة: «اليوم يفتح لك في قلبك باب قد كان من قبل مغلقاً، وسيكون هذا الحب الأبوي وسيلة لتهديب مشاعرك وتلطيف مزاجك وترقيق وجدانك!».

ويعترف الأب الأديب أنه حين قرأ هذه الكلمات في حينها لم يستوعب جيداً معانيها، غير أن تجربة السنين قد أوضحت له ما التبس عليه وقتها فهمه، وأدرك بالتجربة الشخصية كيف ساهم هذا «الباب» الذي فتح في قلبه بالفعل في تهديب مشاعره وترقيق وجدانه وتلطيف مزاجه.. فليس كتجربة الأبوة والأمومة تجربة في قوة تأثيرها على شخصية الأم أو الأب، وعلى نظرته إلى الحياة وخطته فيها وألوياته بشأنها!

أذكر - وأنا أكتب هذا المقال الآن - أنني حين رزقت بابني الوحيد أن زميلة لي بالأهرام عرفتني سنوات طوال قد سألتني عما أشعر به بعد أن أصبحت أبا لأول مرة في حياتي، وكنت حين وجهت إلي هذا السؤال عائداً لتوي من المستشفى الذي شهد مولد ابني بعد أن تلامست فيه لأول مرة عن قرب مع معجزة الخلق الإلهية، ووقفت ذاهلاً مضطرب المشاعر أمام هذا الكائن الحي الصغير الذي جاء

إلى من عالم الغيب في لحظة خلق نورانية عجيبة، فخطف قلبي من اللحظة الأولى التي رأيته فيها، وملك على جماع نفسي وهو مجرد قطعة من اللحم البشري لا تدري من أمرها شيئا. ولقد وجدت نفسي أجيب على سؤال زميلتي إجابة تلقائية غريبة، هي أنني أشعر الآن بالخوف أكثر من أي فترة في حياتي الماضية كلها، شأني في ذلك شأن من هبطت عليه فجأة من السماء ثروة طائلة بعد طول إملاق، فسعد بهذه الثروة الطارئة سعادة طاغية، لكنه بدأ في نفس اللحظة يعرف الخوف القاتل عليها كل لحظة من الضياع. فكأنما قد سعد بها وشقي في نفس الوقت!

ولم أكن حين أجبت زميلتي بهذه الإجابة التلقائية قد قرأت بعد ذلك البيت من الشعر العربي الذي يقول فيه الشاعر:

هذا الصغيرُ الذي وافَى على كبري أقرَّ عيني ولكنْ زادَ في فكري

وحين قرأته فيما بعد أعجبت به كثيرا، ووجدتُ فيه ترجمةً بدیعة لهذا المزيج العجيب من مشاعر الفرح والخوف والقلق التي تضاربت في نفسي حين عرفت الأبوة لأول مرة في حياتي.. فإذا أردت أن تعرف بعد كل ذلك ماذا كتب «أحمد حافظ عوض» لابنه فلنستوف تشعرا بالإعجاب إلى حد كبير بقيم ذلك العصر الذي كتب فيه هذا الأب رسائله إلى ابنه، وبأسلوب هذا الأب في التربية، فلقد قال لابنه في رسالته الأولى إنه لا ينكر عليه أن يجد نفسه ذات يوم مختلفا معه في بعض آرائه التي يسطرها إليه في هذه الرسائل، لكنه ينبهه فقط إلى أنه لا يحق له أن يضع هذه الآراء موضع الشك قبل أن يبلغ مثل سنه وتجربته في الحياة.

ثم يحدثه في الرسالة الثانية عن اقتناعه بضرورة أن يرتوي الطفل من طفولته حتى الشبع قبل أن يبدأ في تحمل هموم التعليم وموونته ولهذا فلقد اختار له ألا يبدأ دراسته الابتدائية إلا حين بلغ سن الثامنة!

ويحدثه في الرسائل التالية عن أهمية تنمية ملكة الاستقراء والبحث والملاحظة لديه، ويلفت نظره إلى أن ما يتلقاه الأبناء من علم في المدارس لا يكفي وحده لأن يسلمهم بسلاح الخبرة والمعرفة والقدرة على مواجهة الحياة، لهذا فإنه ينبغي له أن يستكمل بملاحظة الحياة وسؤال أهل الخبرة عن كل ما يستغلق عليه فهمه، وبالتفكير في شؤون الدنيا والعلاقات الإنسانية فيما يسميه المؤلف «التمرين العقلي»، وهي رياضة يحتاج إليها الأبناء بنفس قدر احتياجهم إلى الرياضة البدنية التي يسميها «التمرين البدني» ثم يحدثه بعد ذلك عن أهمية تعلم اللغات الأجنبية بعد إجادته للعربية وآدابها وفنونها، وكيف يرى أن الابن الناجح هو من يحرص على إجادته للعربية «نحوا وآدابا» - على حد تعبيره - ثم يجيد من بعدها إحدى اللغتين الفرنسية أو الإنجليزية «نحوا وآدابا، أيضا.

ولا يكتفي بذلك، وإنما يضيف إليه كذلك إجادته الترجمة من الإنجليزية إلى العربية وبالعكس، ويحدثه عن تجربته الشخصية في ممارسة الترجمة، وما تتطلبه من ذوق أدبي ينبغي لمن يمارسها أن يتمتع به.. ويرشح لابنه عيون الشعر والأدب الإنجليزي التي يرى له أن يقرأها ويحفظها.

ثم لا ينسى أن يحدثه بعد ذلك عن «العلم الذي أحب لك أن تميل إليه» وهو التاريخ، ويطيل الحديث عن أهمية قراءة التاريخ واستيعاب دروسه والاستفادة من تجاربه وحكاياته وعبره.

ويأتي بعد ذلك دور العلوم الطبيعية وأهميتها كسلاح أساسي من أسلحة المعرفة التي يحتاج إليها الشاب في حياته، ثم اختيار المهنة التي يمتنها الابن، وينصحه بالأعمال إلا بما يحب من الأعمال، وأن يخلص لعمله كما يخلص المحب لمحبوبه.

ويهدي إليه تجربة عمره التي تؤكد له أن الثروة وحدها لا تصنع السعادة، وإنما يصنعها رضاء الإنسان عن نفسه وعمله وحياته وممارسته لما يحب من أعمال، ومصاحبته لمن يستريح إليهم من البشر.

ثم تتوالى نصائح الأب لابنه فيما يتعلق بأهمية السلوك القويم وكسب ثقة الناس، والتواضع، والكفاح من أجل تحقيق النجاح في الحياة، ويذكره بما قاله الشاعر الإنجليزي «ميلتون» من أن العقل في موضعه من الرأس هو الذي يصنع جسيم الإنسان أو نعيمه ويذكره أيضا بأهمية الحزم وعدم التردد، والكفاح في الحياة بغير انتظار معجزات الحظ لكي تحقق للإنسان آماله، مع التسليم بدور الحظ في النجاح.

وتتوالى النصائح والإرشادات نابعة من القلب، ومعطرة بعطر الحب والإخلاص والرغبة الصادقة في أن يسعد الابن بحياته، وأن تكون رحلته في الحياة أفضل وأسعد من رحلة الأب نفسه فيها، وهي الأمنية الصادقة لكل أب وكل أم لأبنائهما.. لكن قليلا ما يدرك الأبناء وقليلا ما يفهمون!

ترى كم من الآباء والأمهات يرغبون الآن في كتابة مثل هذه الرسائل الطويلة لأبنائهم بعد أن عجزوا عن التواصل معهم وهم على بعد أمتار قليلة منهم؟



رسائل أب لابنه [٢]

ماذا أستطيع أنا أن أكتب إذا بعثت لابني بضع رسائل كتلك التي كتبها الكاتب الأديب أحمد حافظ عوض لابنه وضمنها كتابه الفريد « من والد إلى ولده! »

ترى هل سأحدثه فيها عن حبي له، وأقول له ما قاله حافظ عوض من أنه قد خبر كل أنواع العواطف فلم يجد فيها عاطفة أقوى من عاطفة الأب نحو فلذة كبده؟

وهل تحتاج مثل هذه البديهة إلى تأكيد وتسجيل؟

إن علماء البلاغة يقولون لنا إن السكوت عن المعلوم بلاغة! وهذا صحيح

في فنون القول والكتابة، لكنه ليس صحيحا في تقديري في مجال العلاقات الإنسانية، فنحن في أمس الحاجة نفسيا وعاطفيا لأن نؤكد لأنفسنا ولأعزائنا كل يوم هذا «المعلوم» الذي ينصحننا بالبقاء بالسكوت عنه، ويسعدنا كثيرا أن يكرره علينا من نحبهم ويحبوننا، ويسعدهم هم أيضا أن نفعل نحن معهم ذلك، ولهذا فالسكوت هنا عن «المعلوم» ليس بلاغة وإنما جفاف في المشاعر وتجاهل لحقائق النفس وفشل معيب في إدراك احتياجاتها الأساسية. لقد كنت أعجب وأنا في مرحلة الشباب لما أراه في الأفلام الأجنبية من مشهد يتكرر كثيرا فيها هو مشهد زوجة تحدث بالتليفون زوجها في شأن من شؤون حياتهما الأسرية، ثم تختتم حديثها له بأن تقول له في رقة: «أحبك» فيجيبها برقة مماثلة: «وأنا أيضا أحبك»! ويضع السماعرة ويرجع إلى عمله منتشيا ومزودا بجرعة جديدة من الحب تهون عليه متاعب الحياة، وتقوي من عزيمته على الصمود لكل المصاعب والمضايقات.

أو مشهد أب يناقش ابنه الشاب في أمر من أمور حياته ومستقبله، ويختلف معه في الرأي ويعجز عن إقناعه بما يراه هو محققا لسعادته ومصالحته، فيزهده في مواصلة المناقشة ويقول له منهيًا الجدل حولها: «افعل ما تراه الأفضل والأصلح لك من وجهة نظرك، لكن تذكر دائما أنني أحبك وسوف أظل كذلك مهما يكن القرار الذي تتخذه في هذه المسألة». فيرد عليه الابن منفعلا: «وأنا أيضا أحبك يا أبي ولا أتصور الحياة بغيرك»، ثم يندفع إلى أحضان أبيه ويحتضنه الأب ويقبله وهو يشعر بكل ما في الدنيا من سعادة وأمان.

نعم.. كنت أعجب لمثل هذين المشهدين، وأبحث عنهما في حياتنا العائلية فلا أجد لهما مثيلا في كثير من الأحيان، ثم تقدم بي العمر فازددت فهما لأهمية ما يمثله هذان المشهدان من معان ورموز وازددت عجا لخلو حياتنا العائلية من أمثالهما.. فنحن قد اعتمدنا للأسف على هذه القاعدة البلاغية الفاسدة وأسرفنا في ذلك حتى أصاب الجفاف بعض المشاعر وأصاب الشلل بعض الألسنة واختفت كلمات الحب في علاقاتنا الأسرية بدعوى أن «المعلوم» لا يحتاج إلى تكرار تأكيده أو التذكير به! وهذا خطأ بالغ في فهم طبيعة الإنسان وعمق احتياجه الدائم إلى الزاد العاطفي المتكرر كل يوم، بل وكل ساعة إذا أمكن ذلك.

إن الزوجة تحتاج نفسيا وعاطفيا لأن يكرر عليها زوجها في كل مناسبة كلمات الحب والعشق والهيام، وأن ينشد لها أناشيد الغرام من حين إلى آخر كما كان يفعل معها قبل الزواج، وفي أيامه الأولى.

والزوج يحتاج نفسيا وعاطفيا لأن تؤكد له زوجته مشاعرها العاطفية نحوه كل حين، ولو فعلت ذلك لازداد ثقة في نفسه ورضا عنها وعن حياته، ورغبة في إسعاد زوجته. والأب في حاجة لأن يذكره أبناؤه في كل لحظة بأنهم لا يزالون يحبونه ويعتمدون عليه ويحتاجون إليه نفسيا وعاطفيا كما كانوا يفعلون وهم صغار حين كانوا يرون الحياة بعيني هذا الأب ويتلقون خبراتهم الأولى معها عن طريقه وعن طريق أمهم. والأبناء أيضا ومهما بلغوا من العمر يحتاجون لأن يعبر لهم أبائهم وأمهم عن حبهم لهم بالكلمات إلى جانب التصرفات والأفعال، ولا أدري لماذا يخجل ابن شاب من أن يعبر عن مشاعره العاطفية بالكلمات تجاه أبيه وأمه وإخوته؟.. ولماذا «يؤجل» هذا التعبير دائما إلى أن يتعرض أحدهم لمحنة المرض أو يرحل عن الحياة لكي يطلق العنان لعواطفه الحبيسة تجاهه؟

إنني لو كتبت لابني مثل هذه الرسائل التي كتبها حافظ عوض لابنه، فلن أحدثه طويلا عن أهمية إجادة اللغة العربية - نحوا وآدابا- واللغة الإنجليزية أيضا نحوا وآدابا كما فعل هو في زمانه، كما أنني لن أطيل الحديث أيضا معه عن أهمية الكفاح والجدية في الحياة لبلوغ الأهداف، أو أهمية الالتزام بالفضائل والقيم الخلقية والدينية والتواضع إلخ.. نعم لن أفعل هذا لأنني أحسب أنني قد أدت بعض رسالتي معه في ذلك، وكان منهجي معه هو ألا أحدثه عن أهمية العمل الجاد في الحياة لكي يحقق نجاحه فيها، وإنما ألا يراني في معظم الأحيان إلا منكبا على أوراقي بالساعات الطوال وحتى طلوع الفجر معظم أيام الأسبوع.

وكان منهجي أيضا ألا أحدثه عن أهمية القراءة بالنسبة لشباب يتطلع لأن يكون قادرا على مواجهة الحياة بعقلية أفضل، وإنما أن يراني أمامه لا أحتفي بشيء مثل احتفائي بقراءة كتاب جديد، ولا أسعد بشيء مثل سعادتي بقراءة كتاب قيم أثرى وجداني ومعارفي بشيء ثمين، وألا أحدثه عن أهمية إجادة العربية والإنجليزية - نحوا وآدابا - كما فعل حافظ عوض، وإنما أن يراني وقد بلغت من العمر ما بلغت أضع على مكتبي في البيت بعض كتب النحو المدرسية لأرجع إليها إذا استشكل على إعراب كلمة أو عبارة، وأضع بالقرب مني قواميس اللغتين العربية والإنجليزية لأستعين بها في فهم ما يستغل على فهمه من أسرارهما، ولعلي قد تعمدت مرارا وتكرارا أن أكلفه هو أو أخته بالبحث عن معنى كلمة ما في قاموس اللغة العربية أو الإنجليزية لكي يكتسب عادة استخدام القواميس والاعتماد عليها في إثراء لغته ولعلي قد تعمدت أيضا في كثير من الأحيان ألا أجيبه عن سؤال وجهه إلي هو أو أخته حين كان في مرحلة التساؤل والبحث عن إجابات للأشياء المحيرة، مكتفيا بإرشاده إلى اسم كتاب موجود بمكتبتي وطالبا منه إخراجها من المكتبة وفتحها على بعض صفحاته وقراءتها لكي يجد فيها الجواب على ما سأل عنه، ولو كنت قد أجبتة على ما سأل عنه لما عقلت إجابتي

بذهنه طويلا، وأما بحثه هو عن الإجابة وتجشمه عناء استخراجها من بطون الكتب فلا شك أنه يعينه على ألا ينساها بسهولة في قادم الأيام.

ولقد اتبعت دائما هذا النهج معه ومع أخته، وحاولت تدريبهما على البحث عن إجابات لما يعن لهما من أسئلة في دوائر المعارف التي أحتفظ بها بمكتبتي، وقلت لهما مرارا إن الجهل خطيئة للقادر على اكتساب المعرفة، وإن من يعرف أنه جهل شيئا ولا يسأل عما يجهله فلقد أضاف إلى آفة الجهل خطيئة الكسل عن طلب المعرفة الميسورة له إذا بذل بعض الجهد أو تحمل بعض العناء. ثم دارت الأيام دورتها ودرس ابني الكمبيوتر وتفوق فيه وعمل في مجاله، واشترت له منذ بضع سنوات جهازا حديثا للكمبيوتر، فأصبحت أنا الذي يحاول الآن جاهدا أن يتعلم على يديه بعض أسرار ه بعد أن كنت أعلمه الأشياء وأخذ بيديه لكي يخوض بحر المعرفة، بل وأصبح مألوفاً في حياتنا أن أكون منشغلا بكتابة مقال فأتوقف أمام معلومة تحتاج إلى توثيق أو إضافة فألجأ إليه لكي يبحث لي عن سندها ومعلوماتها الموثقة في جهازه السحري العجيب، ولا تمضي دقائق حتى يحمل إلي بضع صفحات استخراجها من دائرة المعارف المسجلة على دسك صغير لا يزيد حجمه على حجم كف اليد فأستعين بها على ما أكتبه وأنا أتعجب لأحوال الدنيا العجيبة التي جعلت من هذا القرص الصغير بديلا أسرع وأوسع علما من أجزاء دائرة المعارف البريطانية التي تنوع بها رفوف مكتبتي، أو من الموسوعة العربية الميسرة التي توقفت معلوماتها عند سنة صدورها في الستينات.

فأما التواضع في الحياة والرضا بما تأتي به الأقدار والالتزام بالقيم الدينية والأخلاقية والفضائل الشخصية فلم يكن يجدي الكلام في محاولة إكسابها لأحد ما لم يقترن ذلك بالعمل والقدوة والمثال.

فإن رضيت عن أشياء كثيرة في حياتي وشكرت الله سبحانه وتعالى عليها آناء الليل وأطراف النهار فإنه يجيء في مقدمتها تشابه الرؤية بيني وبين ابني وابنتي في نظرنا إلى الحياة والسعادة والأشياء الجديرة بأن يسعى إليها الإنسان وتلك التي لا تستحق أن يشقى بمحاولة طلبها أو السعي إليها، إذ أننا جميعا لسنا والحمد لله ممن يرون السعادة في المال وحده ولا ممن يحتفون كثيرا بأهداف الثراء في الحياة أو يقيمون الآخرين على أساس ما يملكون من ثروة، كما أننا لا نرى الآخرين جديرين بصحبتنا إلا بأخلاقياتهم وقيمهم وفضائلهم وليس بأي شيء آخر، ولا يشغلنا لوهلة ماذا يملك الآخرون بالقياس إلى ما نملك نحن، ولا يعيننا أن يكون لدى الآخرين مالا يتاح لنا من أعراض الدنيا، ولا نقارن حظوظنا في الحياة بحظوظ غيرنا، ولو فعلنا ذلك لوجدنا بين أيدينا مالا يكفي العمر كله للشكر والامتنان لرب العالمين عليه.

كما أن أحلامنا في الحياة ليست مادية وإنما «معنوية»، وتتلخص في أغلى الأمنيات الجديرة حقا بالاعتبار وهي الصحة والستر وراحة القلب والبال، ولست أزعم لنفسي فضلا في اكتساب أنبائي هذه الرؤية الخاصة للحياة، بل لعلى لا أذكر أنني قد «حاضرته» ذات يوم عن أهمية السعادة في الحياة والرضا بما يتاح للإنسان من أسباب دون النظر لحظوظ الآخرين فيها، وإنما أحسب أن المعيشة

اليومية، والقيم السائدة في أية أسرة هي التي تشكل تلقائياً وجدان الأبناء بالإضافة إلى ما يرقبونه من مواقف الأبوين إزاء بعض الاختبارات التي تترجم رؤيتهم للحياة وأفكارهم عنها ومبادئهم الأخلاقية تجاهها.

إذن فماذا أستطيع أن أقول لابني إذا أردت أن أكتب إليه مثل رسائل حافظ عوض لولده؟

لا شك أن لدى الكثير والكثير مما أريد أن أقوله له ولأخته، لكني إن فعلت ذلك فلسوف أبدأ رسائلي إليه وإلى كل الأبناء بمطالبتهم بأن يتخلوا مع آبائهم وأمهاتهم عن ذلك الدرس «الفساد» من مدرس البلاغة القديمة وأقول لهم إن السكوت عن المعلوم في مجال العلاقات الإنسانية وخاصة بين الأبناء والآباء والأمهات ليس من العلامات الصحية بين الطرفين في شيء، فتخلوا - يرحمكم الله - عن صمتكم مع آبائكم وأمهاتكم وإخوتكم ولا يشعرن أحدكم بالخجل من أن يعبر عن مشاعره العاطفية تجاه أبيه أو أمه مهما بلغ به العمر، ولا من استخدام نفس المفردات التي يستخدمها العشاق مع هذا الأب وتلك الأم، بل تبادلوا مع آبائكم وأمهاتكم كلمات الحب والغرام التي تخصون بها غيرهم كل يوم إذا أمكنكم ذلك، لأن حاجة الآباء والأمهات إلى ذلك شديدة وملحة، وهي حاجة تنمو لديهم وتتعمق كلما تقدم بهم العمر وراودهم الإحساس المرير بأنهم لم يعودوا كما كانوا بالنسبة لأبنائهم وهم صغار في بؤرة الاهتمام وقلب الدائرة، وإنما تراجعوا عن قلبها إلى أطرافها الهامشية، وحل محلهم لدى الأبناء شركاء قلوبهم وأصدقائهم والعشرات من دونهم.

إن المؤسف حقاً هو أننا لا نستشعر عمق احتياج آبائنا وأمهاتنا العاطفي إلينا إلا بعد أن يكونوا قد رحلوا عن الحياة وصنعنا نحن أسرنا الصغيرة وعاشنا مشاعر الأبوة وخبرناها، فأدركنا كم كنا جفاة القلوب عصاة المشاعر تجاه آبائنا الراحلين، وكم كنا قساة وأغبياء حين لم ندرك في الوقت المناسب ما كانوا يتوقون لأن نقدمه لهم من عطاء معنوي وشغلنا الحمق وغرور الشباب عن أن نلبيه لهم، فأورثناهم الحسرة من حيث لم نرغب أو نريد. فإذا كانت ثمة نصيحة أوجهها لكل الأبناء فهي النصيحة البسيطة التي تطالبهم ألا يكرروا أخطاء من يعضون الآن بنان الندم ويترحمون على الراحلين من الآباء والأمهات ويهتفون صامتين كلما أمضهم الألم: يا ليتنا كنا قد قدمنا لآبائنا وأمهاتنا بعض ما نتلهف الآن على أن يقدمه لنا أبناؤنا، ويا ليتنا كنا قد تجنبنا اللوم الصامت من آبائنا وأمهاتنا كما نلوم نحن الآن في صمت أبنائنا على جهلهم لعمق احتياجنا العاطفي لهم وتقصيرهم في تلبية لنا بالكلمة الحانية والحديث الدافئ الطويل وبالمفردات العاطفية التي يخلجون جهلاً وحمقاً من استخدامها معنا!

دفاع في الوقت الضائع

أحسستُ كأني أقف في ساحة محكمة وهمية.. «أترافع» فيها عن آرائي ومعتقداتي، وهذه الصحفية الشابة تجلس أمامي ساهمة مهمومة بشيء غامض لا أعرفه، ولا تريد الإفصاح عنه!

إنها «سيدة» جميلة في الثلاثينيات من عمرها، وزوجة منذ عشر سنوات، وأم لطفلين أكبرهما في التاسعة من العمر، وتعمل بصفة غير منتظمة بإحدى المجلات العربية، وتكرس معظم وقتها لبيتها وطفلها.

أما «الالتهام» الخطير الذي واجهتني به وشعرت من كلماتها أنه يعكس بعض ظروفها الشخصية، فهو أنني في ردودي وكتاباتي في بريد الجمعة بالأهرام أتخذ دائما صف الأبناء وأطالب الآباء والأمهات بأن يتحملوا حياتهم، بل وتعاستهم إذا تطلب الأمر ذلك في سبيل الحفاظ على استقرار الأبناء وسعادتهم.. وأني أخص الأمهات غالبا بمطالبتهن بهذه التضحية لأبنائهن مهما كانت درجة معاناتهن وتعاستهن مع الآباء.. وأني أنكر على الأمهات والآباء حقهم في التطلع إلى سعادتهم الخاصة إذا تعارضت هذه السعادة التي يحملون بها مع سعادة أبنائهم واستقرارهم بين أبوين طبيعيين تحت سقف أسرة واحدة، حتى ولو كانت سماؤها ملبدة دائما بغيوم الشقاق والنزاع وأني أيضا «أجلد» بقلمني الأم التي تنفصل عن زوجها وتضحى بمصلحة أبنائها الصغار لكي تتزوج ممن رأت أنه «النصف الصحيح» لها الذي أخطأت الطريق إليه من البداية، وأفعل ذلك معها بأقسى مما أفعل مع الأب الذي قد يرتكب نفس التصرف!

وسألتني الصحفية الشابة بصوت خفيض بعد أن سردت عليّ عريضة الالتهام هذه:

أليس من حق المرأة أن تضع سعادتها أيضا في الاعتبار إلى جانب سعادة أبنائها؟.. وأليس من حقها إذا كشفت لها تجربة الزواج عن تعاسة لا أمل في النجاة منها أن تبحث عن سعادتها مع رجل آخر ولو تحمل الأبناء بعض العناء والتشتت في سبيل تحقيق هذا الحلم، كما تحملت هي من أجلهم تعاسة الحياة لعدة سنوات مع من لم تقدم لها معاشرته إلا الشقاء؟

واستمعت إلى تساؤلها المتردد وأنا أشعر بالرتاء لها أكثر مما أشعر بالاحتجاج على اتهامها لي، فلقد أحسستُ أنها تعبر به عن نفسها وتلمس الطريق إلى تهدئة خواطرها، وربما أيضا إلى «تشجيعها» على ما تتردد أمامه وتنمزق بينه وبين عاطفتها تجاه أطفالها.. فتقبلتُ «اتهامها» لي بصدور رجب، ثم تهيأت للدفاع عن نفسي وآرائني، فقلت لها إنني أبدأ إجابتي على ما سألتني عنه بأنني أعتبره نوعا من العتاب لأن العتاب يكون دائما بين الأصدقاء، أما الالتهام فيكون عادة بين الخصوم، ولستُ أعتبر نفسي خصما لأحد، وأظن أيضا أن من توجه إليّ هذا الالتهام لا تعتبرني كذلك، فإذا كنت بعد ذلك أشد في لومي لمن تترك صغارها الذين يحتاجون إلى عطفها وحنانها وتحرمهم من الاستقرار والأمان وحقهم العادل في أن ينشأوا نشأة طبيعية بين أبوين لأنها ضاقت بحياتها مع زوجها أو نفذ صبرها

سريعا على احتمال متاعب حياتها معه، أو لأنها توقفت في منتصف الطريق وراجعت نفسها وتساءلت: ولماذا أمضي بقية العمر في حياة لا تحقق لي أحلامي في السعادة، ومن حقي أن أبحث عنها في طريق آخر ولو أدى الأمر إلى تمزق أطفالي بيني وبين زوجي؟.. أقول إنني إذا كنت أشد في لومي لمن تسارع بهدم عشها وتشتت أطفالها مفضلة سعادتها الشخصية على استقرارهم فإني أفعل ذلك مدفوعا بعدة اعتبارات هامة.

وتوقفت لحظة لأرتب أفكاري قبل أن استطرد في الحديث فلاحقتني الصحفية الشابة بالسؤال متلهفة: وما هي هذه الاعتبارات؟

فأجبتها بأني أو من دائما بأن الأسرة في كل المجتمعات - المتقدمة منها والمتخلفة - هي أسرة أمومية أكثر منها أبوية، بمعنى أن عمادها الحقيقي الذي يقيم بنيانها ويحفظها من الانهيار هو الأم غالبا وليس الأب، وأنه إذا كانت السلطة في الأسرة للأب فإن ما يحفظ كيانها واستمرارها هو الأم في الأغلب الأعم، لأن الرجل أكثر نزوية من المرأة وأكثر استجابة لنزعاته وأكثر جرأة تجاه الإقدام على تغيير حياته.. في حين أن المرأة أكثر ميلا للاستقرار وأكثر ارتباطا بأبنائها وبمسؤوليتها العائلية عنهم من الرجل.. لذلك فقد يتشتت الأبناء الذين يفقدون أهمهم بأكثر مما يتشتت ويتفرق الأبناء الذين يفقدون أباهم، لأن الأم - حتى في حالة رحيل الأب أو غيابه أو انفصاله عنها وانصرافه إلى ملذاته وحياته الشخصية - تحتضن هؤلاء الأبناء وتفرد جناحيها عليهم، فلا يضيعون في الحياة كما قد يضيع من يفقدون أهمهم في بواكير العمر. هذا هو أول اعتبار يدفعني لتذكير الأم بمسؤوليتها الخطيرة عن حماية أبنائها من التشتت والضياع إذا فقدت قدرتها على احتمال حياتها الزوجية وسعت إلى هدم المعبد فوق رؤوس الصغار، أما باقي الاعتبارات فلا تقل أيضا خطورة عن ذلك، وهي: أنني أو من بأن الآباء والأمهات ليسوا مسؤولين فقط عن إعالة أبنائهم وإطعامهم وكسائهم وتربيتهم وتعليمهم، لكنهم مسؤولون كذلك عن إسعادهم حتى ولو تحققت هذه السعادة على حساب تعاسة أحد الأبوين أو كليهما معا. ومنطقي في ذلك واضح وبسيط، وهو أننا لم نستشر هؤلاء الأبناء في أمر إنجابهم قبل أن نأتي بهم من عالم الغيب.. ولم نستشرهم كذلك في اختيارنا لشركاء حياتنا، وليس من العدل أن يدفعوا ثمن أخطائنا في التعامل مع هؤلاء الشركاء، أو يعاقبوا على سوء اختيارنا لهم من البداية.

والإنسان الشريف هو من يتحمل صابرا تبعات أعماله وأخطائه ولا يطالب الآخرين بأن يدفعوا معه هذا الثمن.. وإذا سلمنا بهذا المبدأ فإنه لا بد أن يدفعنا لأن نبذل كل ما في وسعنا لإنجاح الحياة الزوجية والحفاظ عليها، فنؤدي بذلك واجبا إنسانيا عاما تجاه أبنائنا الذين لا يسعدون إلا بنشاطهم بين أبوين طبيعيين مهما كانت معاناة أحدهما مع الآخر، فضلا عن أنهم لا يفهمون أبدا لغة «السعادة الخاصة» التي يبرر بها أحد الأبوين وقوعه في هوى «النصف الصحيح» الذي ضل إليه الطريق من البداية، أو التقى به فجأة عند منعطف هام في حياته، أو وجد لديه سعادته الحقيقية التي افتقدها في حياته البائسة.

إن الأبناء لا يفهمون أبدا هذه «اللغة» ولا يقبلونها، ولا يعفون الأب أو الأم من مسؤوليتهما عن حرمانهم من الحياة في أسرة طبيعية مع أبوين يظلهما سقف واحد مهما كانت مبررات كل منهما لما فعل ولقد نشرت في بريد الجمعة منذ سنوات رسالة لأم في الثانية والخمسين من عمرها تشكو لي فيها من الشكوى من ابنتها الوحيدة الشابة التي لا تكف عن لومها وتحميلها مسؤولية انفصالها عن أبيها وهي طفلة لأنها لم تحتل حياتها معه فانفصلت عنه وكرست حياتها لهذه الابنة ولم تتزوج بعد أبيها، ومع ذلك فلم ترحمها هذه الابنة حين كبرت وغدت شابة، ووجدت أباهما يعيش مع زوجة أخرى وله أبناء منها ينعمون بالحياة الأسرية السعيدة، في حين تبدو هي أمام من يريد أن يتقدم لخطبتها فتاة وحيدة تعيش في كتف أم مطلقة، مما يقلل من اعتبارها أمامه ويثير شكوكه في قدرتها على الحفاظ على الحياة الأسرية فراحت «تجلد» أمها كل يوم بالحساب والعتاب وبالسؤال المؤلم: لماذا لم تتحمل حياتك مع أبي من أجلي؟ ولماذا سارعت بالتسليم بالهزيمة ولم تتمسكي بحياتك معه لكيلا أشعر بهذا الحرج أمام فتاي وهو يسألني عن أسباب انفصالك عن أبي ويتخوف من تجريبي على طلب الانفصال عنه عند أول أزمة تكرر لتجربتك في الحياة؟

ورغم قسوة هذه الفتاة على أمها - بل وظلمها لها أيضا وهي من كرس حياتها لرعايتها - فإنها تكشف من حيث لا تدري عن منطق الأبناء الذي لا يعترف إلا بحقهم في أن يجنبهم الآباء والأمهات أي خلل في الشكل الاجتماعي والعائلي أمام الآخرين، ولو دفعوا ثمن ذلك غالبا من سعادتهم الشخصية.

وهمت بأن أوصل حديثي، فلاحظت فجأة أن سحب الهموم الداخلية تتكثف داخل محدثتي وتنعكس على وجهها الحزين، حتى شككت في دقة متابعتها لحديثي.. ولولا جهاز التسجيل الموضوع أمامي لأدركت أنها ستعجز عن استرجاع كلامي لنتشره في المجلة التي تكتب لها، فتوقفت لحظة حتى شعرت بأنها قد أفاقت من شرودها ثم قلت:

إن سعي الإنسان إلى سعادته الشخصية أمر مشروع ولا غبار عليه، ومن حقه بلا شك إذا افتقد الحب والتفاهم مع شريك حياته أن يتخلص من هذه الحياة ويبحث لنفسه عن حياة أخرى يتحقق له فيها ما يصبو إليه من أمان وسعادة، ولكن بشرط هام هو ألا يكون لسعادته المرتقبة هذه ضحايا أبرياء لا ذنب لهم ولا جريرة في تقلب المشاعر والأهواء، ولا في سوء الاختيار منذ البداية. ومن أسباب الشقاء الإنساني - بصفة عامة - تعارض أسباب السعادة بين الناس في كثير من الأحيان، بحيث يصبح ما يحقق له السعادة هو نفسه ما يحقق الشقاء لآخرين من الأعداء أو غير الأعداء بنفس الدرجة، حتى لأكاد أسلم أحيانا بتلك العبارة المتشائمة التي تقول: «إن السعادة في هذه الدنيا لا تواتينا إلا في الأحلام»، وأقصد بها تلك السعادة الحقيقية الشاملة التي لا يورقها تصور تعاسة الآخرين بأسباب هذه السعادة نفسها، ولا تثمر الشقاء للآخرين في نفس الوقت ولهذا كله فمن واجبنا أن نضع اعتبارات الآخرين في حسابنا ونحن نسعى وراء هذه السعادة المشروعة، ولهذا أيضا فإنني لا أعترض أبدا على انفصال الزوجين إذا استحالت

العشرة بينهما إن لم يكونا قد أنجبا أطفالا، أو إذا كان الأبناء قد كبروا وشبوا عن الطوق واكتمل تكوينهم النفسي وأصبح لكل منهم حياته الخاصة التي لا تتأثر جذريا بانفصال الأبوين، والأمر في ذلك متروك دائما لتقدير الإنسان لمسؤوليته عن أبنائه ولضميره الأخلاقي. والأخلاق القويمة يقول الكاتب الإنجليزي «تشستر فيلد» - تقوم دائما على التضحيات الصغيرة، وليس هناك على ظهر الأرض من يستحق أن يقدم لهم الإنسان مثل هذه التضحيات أكثر من أبنائه، فهل يكون من النبيل أن يبخل عليهم بها وفي مقدوره أن يقدمها لهم إذا استجد بالصبر على بعض متاعب حياته؟

إنني لا أطلب أحدا بما طاقة له به، إذ {وَلَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ}، لكني أطلب الآباء والأمهات فقط بالألا يستسهلوا قرار هدم الأسرة وبأن يبذلوا غاية جهدهم لاحتمال حياتهم وإطالة فترة الأمان والاستقرار التي يستمتع بها صغارهم إلى أبعد مدى ممكن، فإذا عجزوا عن الاستمرار أكثر من ذلك واستحالت العشرة نهائيا بينهم، فلا أحد يطالب الإنسان بما لا طاقة له به، {وَإِنْ يَتَّقَرَأْ يُغْنِ □ اللَّهُ كُلًّا مِّنْ سَعَتِهِ}، ولكن بعد أن يكون قد أدى واجبه الإنساني تجاه أبنائه، وجاهد جهاد المخلصين لحماية أسرته من الانهيار وحماية أبنائه من التمزق الأسرى ولم يعد بوسعه أن يتحمل أو يقدم المزيد.

هذا هو ما أطلب به الآباء والأمهات.

أما أن يستسهلوا قرار الانفصال بغير جهاد طويل لتفاديه، أو أن يرجح أحد الأبوين سعادته الشخصية على سعادة أبنائه بلا توقف أمام مصلحتهم ومستقبلهم وما سوف يتعرضون له من آثار سلبية وخيمة لهذا الانفصال، فهذا هو ما أعده حقا أنانية بغيضة تتعارض مع مفهوم الأبوة والأمومة الصحيح، وهو عطاء بلا انتظار للمقابل وحماية نفسية واجتماعية للأبناء.

توقفت عن الحديث والتزمت الصمت مترقبا تعليق محدثتي فقالت لي وهي تغالب ترددها وخرجها: ولكن.. ولكن.. ألم يحل الله الطلاق وييسره؟.. فلماذا إذن نطالب الآخرين باحتمال حياتهم والطلاق ميسور، والأبناء سينشأون في حضانة الأم لفترة ثم في حضانة الأب بعد ذلك ولن يخسروا الكثير بانفصال الأبوين؟!.. أليس إنقاذ الأطفال من معاشرة خلافات الزوجين ومنازعاتهما أفضل لهم نفسيا وتربويا من النشأة في حياة زوجية مضطربة بالخلافات؟

وأدركت ما يدور في أعماقها من صراع خفي بين نداء الواجب الإنساني تجاه الأطفال، وبين نداء السعادة والرغبة في التخلص من الشقاء، فقلت لها في إشفاق:

نعم يا سيدتي.. لقد أحل الله الطلاق، لكنه لم ييسره كما تتصورين بل بغض فيه وكرهه، حتى لقد قال أحد الفقهاء إن الإسلام لم يكره شيئا حلالا كما كره الطلاق، وحتى لقد تعجب العالم الجليل فضيلة الشيخ «محمد الغزالي» من بعض هؤلاء الفقهاء الذين ييسرونه وقد صعب الله منه ووضع دونه العراقيل، واشترط أن تسبقه جهود مضمينة للإصلاح وإنقاذ الحياة الزوجية من الدمار،

فأشترط أن يستنفذ الزوج كل المراحل السابقة له: من النصح والإرشاد، إلى الهجر في الفراش، إلى التأديب، إلى التحكيم، ثم أخيراً - وبعد أن تفشل كل الحيل - الطلاق.

أما مسألة إنقاذ الأبناء من الآثار النفسية الضارة للحياة في أسرة مضطربة بالخلافات بين الزوجين، فلقد أثبتت دراسات علم النفس الحديثة أن نشأة الأبناء الصغار في بيت منقسم على أهله أو مضطرب بالخلافات والمنازعات الزوجية أفضل لهم نسبياً من تمزقهم بين أبوين يحيا كل منهما حياته الخاصة المستقلة، وأفضل لهم أيضاً من نشأتهم في أسرة «وحيدة الأب»، - وهو التعبير الذي يطلق على الأسرة التي تتحمل مسؤوليتها الأم وحدها أو الأب وحده بعد الانفصال - وذلك مع التسليم التام بالآثار النفسية الضارة لمعايشة الصغار لخلافات الأبوين ومنازعاتهما. وإحصائيات الجريمة والانحراف الخلقي في أمريكا - والغرب بصفة عامة - تؤكد هذه الحقيقة التي سلمت بها مؤخراً دراسات علم النفس الحديثة بعد أن كانت تتبنى من قبل الرأي السابق، وهو أن انفصال الأبوين المتنازعين أفضل نفسياً وتربوياً بالنسبة للأبناء الذين يعايشون نزاعاتهما، فأصبح علماء النفس الغربيون الآن يدعون إلى استمرار الحياة الزوجية لأطول فترة ممكنة حتى ولو كانت غير مثالية، وذلك حرصاً على السلامة النفسية للأبناء، وحماية لهم من الانحراف الخلقي، إذ أنهم - ومهما كانت نزاعات الأبوين - يبيتون في النهاية تحت سقف أسرة قائمة تظلهم وتحميهم من أسباب الانحراف، وخصوصاً في مرحلة الطفولة والمراهقة، ولهذا فإني أقول وأردد دائماً أن احتمال الإنسان لحياته الخاصة - رجلاً كان أو امرأة - إلى أن يشتد عود صغاره ويكتمل تكوينهم النفسي ويقوون على مواجهة الحياة وحدهم، إنما هو تضحية نبيلة يقدمها الإنسان لمن يستحقون أن يضحى من أجلهم حتى ولو لم يقدروا له هذه التضحية أو لم يكافئوه عليها في الكبر.

لكن الإنسان للأسف يتجه إلى الفردية في العالم كله ويبعد تدريجياً عن الغيرية وما يرتبط بها من مفاهيم التضحية من أجل الأبناء والأهل إلخ. وقد كان من ثمار هذا الاتجاه الفردي شيوع النظرة «الفلسفية» التي تروج لفكرة أن الحياة قصيرة ولا يعيشها الإنسان إلا مرة واحدة، وبالتالي فمن حقه ألا يبدها في المعاناة أو التضحية من أجل غيره ولو كانوا أبناءه، وأن من حقه أن يطلب سعادته ويفعل كل ما يحقق له هذه السعادة دون التوقف أمام أي اعتبار آخر، فإذا وجد نفسه ليس سعيداً بالقدر الكافي مع زوجته، فلينفصل عنها على الفور ويمزق أطفاله ويبحث عن سعادته، وإذا التقى بامرأة أخرى ووجد لديها ما لم يجده لدى زوجته فما المشكلة؟.. فلينفصل عنها ويرتبط بالأخرى. أما الأبناء والصغار فلا مكان لهم في هذه القرارات، ولا يجوز أن يتوقف أمامهم ويتحمل الصعاب من أجلهم، لأن الحياة قصيرة.. والإنسان يعيشها مرة واحدة.. إلخ.

ولقد كان من نتائج هذا الاتجاه الفردي أن اقترب معدل الطلاق في أمريكا وكندا وغرب أوروبا من نسبة 50 %، بل وتجاوزها في بعض هذه المجتمعات.

وقد حدث هذا في مجتمعات غربية لا تيسر الطلاق ولا تسمح به ديانة أهلها إلا بشروط عسيرة. فماذا يصبح عليه الحال لو كان الطلاق ميسورا وفي متناول يد الإنسان هناك؟ وماذا جد على هذه المجتمعات في الخمسين سنة الأخيرة حتى ارتفعت نسبة الطلاق فيها إلى هذه المعدلات الخطيرة، ونزوية الرجل قديمة وليست شيئا طارئا؟

إن «الجديد» المزعج الذي رفع نسبة الطلاق إلى هذه المعدلات المخيفة هو أن المرأة أيضا قد قلدت الرجل في هذه المجتمعات في نزويته وفرديته ورفضه للتضحية من أجل أبنائه، وراحت تبحث عن سعادتها الشخصية بنفس الطريقة وبنفس هذا التسرع. فهل- سألت محدثتي الصحفية المهمومة تريدون لنا أن نصل في مجتمعاتنا إلى نفس هذه الحال؟

انزعجت محدثتي للسؤال وسارعت بالنفي.. لكنها لم تنه اللقاء ولم تمد يدها لمصافحتي مودعة كما توقعت، وإنما رجعت لمغالبة ترددها قبل أن تسألني: ولكنك تشد في لومك للأم التي تتخلى عن أسرتها وأطفالها لتتزوج بمن ترى سعادتها معه، ولا تندد بالأب الذي يقدم على نفس التصرف بنفس القدر من اللوم الذي تشد به على الزوجة.. أليست مسؤولية كل منهما عن الأبناء واحدة؟

استعصمت بالصبر والأناة وأجبتها: نعم، المسؤولية واحدة وكلاهما ملوم إذا تخلى عن صغاره بلا أسباب قهرية ليرتبط بمن يتوهم سعادته معه على حساب مصلحة صغاره.. وإني لأشد في لوم كليهما معا إذا أقدم على هذا التصرف، فإذا كنت ترينني أكثر لوما للأم منى للأب فربما يكون ذلك تكريما للأم التي أدرك خطورة دورها في حماية صغارها من الانحراف والضياع.. ولأن الأمومة عطاء متصل للأبناء إلى ما لا نهاية، ولأنها حين تهجر صغارها جريا وراء سعادتها الشخصية فإنها تناقض بذلك مفهوم الأمومة النبيل تناقضا صارخا، أما الرجل فلقد سلمنا منذ البداية بأنه أكثر نزوية وفردية من المرأة وعلى قدر الود يكون العتاب كما يقولون!

بدا لي بعد ذلك أن محدثتي قد استنفدت كل ما في جعبتها من تساؤلات حائرة، فنهضت لتصافحني ومازالت ظلال الشجن الغامض تحيط بها، ونهضت لوداعها وهاجس غريب يلح عليّ بأنها لم تكن تجري معي حوارا صحفيا للنشر.. وإنما حوارا جدليا بين أفكارها وشجونها التي تلح عليها، وبين آرائي ومعتقداتي التي أعبر عنها وتتصادم مع أمنياتها ورغباتها.

راقبتها وهي تغادر مكتبي مهمومة حزينة كما جاءتني، وتخيلت ما تكابده من صراع بين نداء التضحية من أجل صغارها وبين نداء الأمل في سعادة تقف دونها الصعاب والأهوال، فتساءلت صامتا: ترى هل نجح «دفاعي» الحار في الانتصار لنداء الأمومة والتضحية في داخلها، أو أنني لم أزد بها إلا حيرة واضطرابا بعد أن كانت قد حسمت أمرها قبل أن تزورني فجاء حوارني معها كلاما في الوقت الضائع!!؟

لم تسمح لي الظروف بعد ذلك بأن أعرف الإجابة الصادقة لهذا التساؤل، إذ لم تعد لزيارتي مرة أخرى، ولم أقرأ أيضا هذا الحديث منشورا في المجلة التي تكتب لها، ولم يبق لي إلا الأمل في أن يكون نداء الأمومة السحري قد واصل معها مهمته الخالدة كما فعل مرارا من قبل، وكما سوف يفعل دائما وإلى ما لانهاية!

قل يا رب!



البنات لازم «تتجوز»

تذكرت اسم هذا الفيلم المصري القديم «البنات لازم تتجوز» كثيرا خلال زيارتي الأخيرة لليابان.

أما لماذا تذكرته فلأن ما سمعته من بعض الفتيات اليابانيات اللاتي تحدثت معهن وبعض السيدات من قادة الحركة النسائية في اليابان، وبعض السيدات من جيل النساء القديم، أعاد اسم هذا الفيلم القديم إلى ذهني ولكن بمفهوم المخالفة. إذ كنت قد طلبت خلال إعداد برنامج زيارتي لليابان أن ترتب لي الجهة الداعية لقاء مع عدد من شباب الجيل الجديد لأتجاوز معهم وأتعرّف على أفكارهم.. وفي مقر جمعية الصداقة العربية اليابانية التقيت بهؤلاء الشباب والفتيات فأفزعني بعض أفكارهم!

سألت فتاة عمرها 35 سنة عن موقفها من الزواج، فأجابتنى ببساطة أنها لم تتزوج ولن تتزوج أبدا حتى اليوم الأخير من حياتها!
لماذا؟

لأنها لا ترى أي دوافع تدفعها للزواج وتحمل مسؤولياتها.

وهي تعيش الآن حياتها في سلام، وتعمل وتكسب، ولها صديق، ولا ينقصها شيء.. فما معنى أن تثقل كاهلها بمسؤولية رعاية بيت، ومسؤولية رعاية زوج، ومسؤولية إنجاب أطفال و «خدمتهم» وتعليمهم ورعايتهم صحيا بحيث لا يصبح لها هدف في الحياة سوى الاهتمام بأمرهم!

وأذهلتني الإجابة بالفعل، وتناقشت معها قليلا حول المستقبل وأهمية أن يكون إلى جوارها إنسان تتبادل معه العطف والحب والاهتمام، ويؤنس وحدتها في الليالي الموحشة حين يتقدم بها العمر وأهمية أن يكون لها أيضا أطفال تفرغ فيهم أمومتها وتتواصل مع الدنيا من خلالهم، ويجددون رغبتها في الحياة.. فلم أجد لحديثي هذا أي صدى لديها.. وإنما قالت لي ببساطة إنها تعيش حياتها الآن بحرية، وأن الزواج ليس في النهاية سوى أعباء ومسؤوليات لا تجد في نفسها الرغبة في تكبدها!

ظننتُ هذا الرأي جموحا شاردا من فتاة تعيش حياتها على هواها، لكن ما حدث خلال نفس اللقاء أكد لي العكس..

فلقد كان من هؤلاء الشباب فتاة أخرى صغيرة سألتها عما تخطط له في المستقبل، فأجابتنى بأنها تخطط لأن تتزوج ذات يوم وتنجب طفلا واحدا أو طفلين، فإذا بأكثر من فتاة من الحاضرات تتدخل في الحديث لتوضح لي أن هذا «الرأي» لا يعبر عن الاتجاه العام لغيرها من الفتيات، وأن هذه الفتاة تعبر عن نفسها فقط وليس عن غيرها من فتيات اليابان.

أي أن هذا الرأي البديهي الذي يتفق مع طبائع الأمور ليس هو القاعدة، وإنما الاستثناء!

وبالرغم من ذلك فإني لم أعول كثيرا على ما سمعت من رفض هؤلاء الفتيات لفكرة الزواج، واعتبرته وجها خاطئا لتحرر فتيات الجيل الجديد في اليابان، والذي يتناقض تماما مع الصورة الشائعة عن الزوجة اليابانية التي كنا نشاهدها في الأفلام القديمة وهي تنحني تحية لزوجها وتخلع حذاءه.. إلخ.

غير أنني وجدت نفسي مضطرا لأخذ هذا الاتجاه في الاعتبار حين زرتُ بعد ذلك سيدة يابانية في بيتها بمدينة صغيرة على بعد ساعة بالقطار من طوكيو، وتحدثت معها عن أسرتها، فقالت لي ببساطة إن لديها بنتا عمرها ٢٧ سنة تدرس الطب ولم تتزوج ولا ترغب في الزواج! وابنا عمره ٢١ عاما يعمل مدربا للسباحة ويقول هو أيضا إنه لن يتزوج، لكنها تعتقد أنه سيغير رأيه في المستقبل.. أما ابنتها فلا يبدو في الأفق ما يشير إلى أنها سوف تغير رأيها بشأن الزواج ذات يوم.

والسؤال الذي لا بد أن يطرحه من يسمع هذه الإجابة - خصوصا إذا كان قادما مثلي من المنطقة العربية - هو:

ولماذا لا تريد ابنتك الزواج يا سيدتي؟ وألا يحزنك ذلك؟

فأما إجابة السؤال «لماذا» فهي تكرر لما سمعته من الفتاة الأولى

في حوارٍ مع الشباب بمقر جمعية الصداقة

وأما إجابة الشطرة الأخرى من السؤال فهي:

يحزنني ذلك قليلا، لكنها حياتها وهي المسؤولة عنها!

كما وجدتُ نفسي أتلامس مع هذا الاتجاه أيضا حين تحاورت مع الأمينة العامة لاتحاد الجمعيات النسائية في اليابان، وأشارت في حديثها إلى أن هذه الموجة موجودة بالفعل بين الفتيات وتحتاج إلى مواجهتها بالإقناع وبمزيد من المساواة بين الرجل والمرأة في الحقوق والواجبات، وأحد أسباب المشكلة - في تقديرها - هي أن المجتمع ينظر إلى مهام رعاية البيت والأبناء ورعاية كبار السن من آباء الزوج والزوجة وأمهاتهم على أنها مسؤولية المرأة وحدها، ولابد من تغيير هذه النظرة لتصبح مهام مشتركة بين الزوج والزوجة لكي يزيد إقبال الفتيات على الزواج.

والمدهش حقا هو أنني حين توقفت في لندن في طريق العودة من طوكيو وأمضيت ليلة في فندق قريب من المطار، فتحت التليفزيون صباح اليوم التالي لوصولي - وكان يوم سبت - فشاهدت في برنامج اليوم المفتوح مناقشة عن الظاهرة نفسها، ورأيت المذيع يخاطب، متخصصا في الشؤون الأسرية عن رأيه في الزواج، وهل ما زال ضرورة اجتماعية أم أنه يمكن الاستغناء عنه؟!.. وسمعتُ الخبير الكهل يقول في انفعال: إن الزواج هو العلاقة الآمنة الوحيدة في

كل أشكال العلاقة بين الرجل والمرأة، وأنه يجب «الحفاظ» عليه لصالح الأسرة والأبناء والمجتمع!

كما رأيت المذيع يستضيف أيضا رجلا وسيدة متوسطي العمر ويناقشهما حول «القضية» نفسها، ويدافع الضيفان عن الزواج كنظام اجتماعي لأنه حماية للأطفال والمجتمع والبشرية من الضياع والانقراض، والمذيع - الذي يربى شعره ويجدله في صفائر طويلة - لا يبدو متحمسا للفكرة، ويجادل الضيفين في إمكانية الاستغناء عن علاقة الزواج واستبدالها بعلاقات أخرى!

يا ربي!.. إن مناقشة المسلمات دليل على أنها قد فقدت جلالها وأصبحت خاضعة للرفض والقبول، فإلى أين تتجه البشرية، وكيف سيكون المصير؟

لقد بدأت هذه الموجة في الغرب منذ عقدين أو ثلاثة عقود، وتمثلت في اتجاه فكري لدى بعض الفتيات والنساء يعتبر الزواج «تضحية» من المرأة بحريتها الشخصية من أجل من تحب، وأنه حين تقدمها الفتاة لمن اختارته فإن عليه أن يقدر لها هذه «التضحية»، الكبرى ويخلص لها الحب والود والعطاء طوال الرحلة.

فأما أنه تضحية بالحرية الشخصية فلأن الفتاة تعيش حياتها في حرية كاملة بدون زواج، وتعمل وتكسب وتتولى مسؤولية حياتها المادية والاجتماعية، فماذا يدفعها لأن تتقبل فكرة سيطرة رجل آخر على حياتها والتزامها به دون غيره، وتحمل كل المسئوليات معه؟

هذا هو الأساس الذي نبعت منه هذه الموجة، لكن الفتاة الغربية - من ناحية أخرى - صادقة مع نفسها إلى حد كبير في حديثها عن مسؤوليات الزواج، لأنها إذا تزوجت فهي لا تتزوج إلا بدافع الحب والرغبة في أن تمضي بقية حياتها إلى جوار رجل تحبه ويحبها، وتلتزم برجلها التزاما نهائيا فلا تخدعه ولا تخونه، ولا تتقاعس في أداء واجباتها تجاهه وتجاه أسرتها وأطفالها، لأن هذا الرجل هو اختيارها الحر، وليس لديها ما يدفعها لاحتمال الحياة معه وخداعه إذا فقدت حبها له أو حتى استشعرت الملل في حياتها معه، فالطلاق ميسور والانفصال وارد، ولا معنى لأن يحيا أحد حياة لا يريد لها.

والذي يستحق التأمل في هذا المجال حقا هو أن المرأة الغربية التي تقبل بفكرة «التضحية» بالحرية الشخصية من أجل الزواج ممن تحب؛ لا تقبل في نفس الوقت فكرة التضحية من أجل الأبناء وتسرع بهدم المعبد فوق رؤوس أطفالها إذا ينست من بعث الدفاء العاطفي في علاقتها بزوجها، أو إذا وقعت في غرام رجل آخر.

فلا عجب إذن في أن ترتفع نسبة الطلاق في كندا - على سبيل المثال - إلى حوالي ٤٥٪، وفي أمريكا إلى حوالي 40٪، وفي غرب أوروبا إلى حوالي 30 أو 35٪، أما في اليابان التي زرتها خلال هذه الرحلة فإن نسبة الطلاق فيها تزيد الآن عن ٢٥٪، أي أن رجلا واحدا من كل أربعة رجال مطلق ويعيش منفصلا عن زوجته،

وكل ذلك من تبعات انتشار الحرية الجنسية والمغالاة في تقليد الجيل الجديد لأسلوب الحياة في أمريكا والغرب، وتزايد الاتجاهات الفردية بديلا عن الاتجاهات العائلية الجماعية التي تضع سعادة الأبناء في الاعتبار قبل اعتبارات الفرد واحتياجاته العاطفية والنفسية.

ومن أطرف ما عرفت خلال زيارتي لليابان أن مفهوم الأسرة فيها قد بدأ يتخلى عن نمط العائلة الكبيرة التي تضم إلى جانب الزوجة والزوج والأبناء، آباء وأمهات الزوجين، ويتجه إلى مفهوم الأسرة الصغيرة التي تتكون من الزوج والزوجة وأطفالهما فقط، وقد خلق ذلك مشكلة جديدة في الحياة العائلية هناك، هي من يرعى الآباء والأمهات المسنين؟ فاليابانيون معمرين، ومتوسط العمر عندهم 68 عاما، ومن الشائع أن يكون للزوج الذي يبلغ من العمر 65 عاما مثلا أما في التسعين وأبا في الخامسة والتسعين، وأن يكون للزوجة أبوين في نفس العمر تقريبا ومن واجبها رعايتهما، فعلى من تقع مسؤولية رعاية أبوي الزوج؟

لقد كان الحال قديما أن يكون ذلك من مسؤوليات الزوجة وحدها، لكن رياح التغيير التي هبت على المجتمع أخرجت هذه المسؤولية من دائرة البديهيات إلى دائرة الجدل!

وربما كان ذلك أيضا من أسباب إحجام بعض الفتيات عن الزواج لكيلا يضمن إلى أعباء رعايتهن لأبائهن وأمهاتهن أعباء رعاية أبوي الزوج، وربما أجداده أيضا!

فالياباني - رغم بعض مظاهر التغريب العديدة في حياته - ما زال يستشعر العار في أن يودع أباه المسن أو أمه إحدى دور رعاية المسنين، وإذا فعل ذلك مضطرا لعجزه عن رعايتهما أو لاحتياج الأبوين لرعاية صحية خاصة لا تتوفر إلا في هذه الدور، فإنه يتخفى خزيا مما فعله ويخجل من أن يعرف به أحد، ولقد لخص لي الشاب الذي خصصته وزارة الخارجية اليابانية لمرافقتي خلال الرحلة القضية كلها في كلمة معبرة حين قال لي: أحد أسباب مشاكل مجتمعنا هي أن اليابانيين لا يموتون!.. يقصد أن أعمارهم تطول إلى ما فوق التسعين وأحيانا المائة مما يخلق للأسرة مشاكل رعايتهم، وللمجتمع مشاكل إنشاء العدد الكافي من دور الرعاية، فضلا عن تخصيص بعض العاملين بالدور لرعاية هؤلاء المسنين في بيوتهم على نفقة الحكومة.

ولأن الإدارات الحكومية تتفاوت خدماتها لهؤلاء المسنين من مدينة إلى مدينة، ومن حي إلى حي داخل العاصمة نفسها، فإن من أسباب انتقال الياباني من حي سكني يقيم فيه إلى حي آخر هو أن تكون الخدمات التي تقدمها إدارة هذا الحي للمسنين أفضل منها في الحي السابق، مما يرفع عنه عبئا كبيرا في رعاية أبويه.

أما إحجام بعض الفتيات عن الزواج فلقد فسره لي المرافق بأن المرأة في اليابان قد أصبحت «أقوى» كثيرا مما كانت عليه في الأجيال الماضية، وتطالب كل يوم بالمزيد من الحقوق والمزيد من المساواة، فلا عجب إذن في أن ترفض بعض الفتيات الخضوع لقيود الزواج بعد أن أصبحن أقوى منه!

ويبقى في النهاية أن أقول إن الدين هو العاصم الأول والأخير للمجتمعات البشرية من شطحات الاتجاهات الفردية التي تمثل موجة إحجام الفتيات عن الزواج أحد مظاهرها.

ولهذا فلن ننزعج كثيرا حين نسمع عن مثل هذه الظواهر في الغرب أو في اليابان أو في أي مكان من العالم، أو حين نجد على شاشة التليفزيون في إحدى دول الغرب مناقشة حول الزواج، وهل ما زال ضرورة اجتماعية أم لم يعد كذلك، فلقد رفضت الكنيسة الإنجيلية في بريطانيا منذ شهور السماح لقساوستها بعقد زواج الشواد، وأدانت بشدة هذه الظاهرة، أما موقف الإسلام من هذا الهراء فلا يحتاج إلى بيان، فـ {سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَحِيمٍ} و{فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا} للبشرية من مثل هذه الشطحات الغريبة.

ودائما وأبدا فإن «البنات لازم تتجوز»، لكي تتواصل الحياة وتتجدد دماء البشرية، وتنجو المجتمعات الإنسانية مما يترصدها من شرور واطار!



تليفون.. تمام.. مطرح

يُخيل إليّ أنني واحد ممن سيغادرون الحياة في موعدهم المقدور لهم وفي نفوسهم غصة من شيء عجيب.. هو أنهم لم ينالوا فيها كفايتهم من النوم.. والراحة!

صحيح أنه سوف ينتظرهم نوم طويل ثقيل في ختام الرحلة، لكن ذلك لن يخفف أبدا من «حسرتهم»، على ما فاتهم من متعة النوم المطمئن لساعات كافية في الدنيا!

فأنا ومنذ سنوات طويلة أستيقظ من نومي بإرادتي أو راغما قبل أن أستوفي حاجة جسمي منه.

ومنذ طفولتي المبكرة وأنا موزع دائما بين نداء أشياء كثيرة في الحياة تتطلب مني «الصحو»، والحركة.. وبين نداء جسم يحتاج كغيره من الأجسام البشرية، إلى ساعات كافية من النوم والراحة، ولم أنجح قط في التوفيق بين النداءين، وكثيرا ما خيل إلى أن «اليوم»:

أقصر كثيرا من أن يتسع لكل ما يريد المرء أن يفعله فيه.. ولهذا فلا مفر من النهوض من الفراش قبل أن يرتوي الجسم بالنوم وينال منه كفايته..

والمشكلة هي أنني من هؤلاء الأشخاص الذين ينامون بصعوبة شديدة وكأنما يعز عليهم الغياب عن عالم الأحياء بالنوم وينهضون من نومهم مثقلي الرؤوس خائري القوى لأنهم لم ينالوا كفايتهم من النوم!

فإذا كان الحال قد تغير في السنوات الأخيرة، وأصبحت مع التقدم في العمر لا أحتاج لمجهود للتنبيه من النوم.. حتى ولو لم أنل منه بغيتي، فلقد كان الحال مختلفا عن ذلك كثيرا في سنوات الطفولة والصبا والشباب..

في مرحلة الطفولة.. كانت يد أمي - رحمها الله وأحسن مثوبتها - تهزني بعنف لأستيقظ من نوم لم أنل منه قط كفايتي لكي ألحق بموعد المدرسة.. وكان «الرجاء» اليومي الذي أتقدم به إليها كل صباح - ولم تقبله قط - هو أن تدعني في فراشي للحظات إضافية أخرى، فتطول الملاحاة بيني وبينها إلى أن أنهض راغما.. وأنا أتعجب «لغفلة» الإنسان الذي أقنع نفسه والآخرين بأن في الحياة أهدافا أخرى «أنبل» وأكثر رشدا وحكمة من هدف الراحة والاستمتاع بالنوم اللذيذ إلى أن يفيق منه تلقائيا بلا حاجة ليد أم تقطع عليه هذه المتعة.. أو صوت «منبه» كرية يفرعه ويقطع عليه أحلامه الجميلة!

صحيح أن كل من حققوا أهدافهم في الحياة كانوا ممن لم يسمحوا لأنفسهم قط بالاستسلام لهذا النداء السحري العجيب.. وكانوا دائما ممن ينامون مبكرا في معظم الأحيان، وينهضون مبكرا في كل الأحوال.

لكن المشكلة بالنسبة لي كانت دائما - وما زالت - في «الشطرة الأولى» من هذه الوصفة الحكيمة التي اتبعها كل من استمتعوا بصحة طيبة وعمر مديد، وهي «شطرة» النوم المبكر التي يترتب عليها «جواب الشرط» - على حد تعبير النحاة واللغويين! - وهو الصحو المبكر بالتالي.

فليس هناك خلاف على أن «البركة في البكور» كما جاء في الأثر، ولا على أن «الله يساعد أولئك الذين يستيقظون مبكرا» كما يقول المثل الأسباني القديم.

لكن أزمتي كانت دائما مع النوم المبكر الذي لا يتحقق الصحو المبكر بدونه، فلقد كنت وما زلت إنسانا «ليليا، ينشط في الليل» ويفتقد بعض حيويته وحدة ذهنه في الصباح الباكر لأنه لا ينام غالبا لساعات كافية.

ولقد ثبت مؤخرا أن للجينات الوراثية أثرا في الطبيعة الليلية لقلّة من البشر، والطبيعة النهارية للغالبية العظمى منهم.. وأنه يمكن بأبحاث طويلة - لم تستكمل بعد - التأثير على «الجين» المسؤول عن هذه الطبيعة وتغييرها بحيث تتوافق مع ظروف الشخص ومتطلبات حياته، لكن هذه الأبحاث لم تحقق غايتها بعد ولا أحسب أنني أريد - حتى لو حققت نجاحها - أن أغير الطبيعة التي ألفتها وألفتني معظم فترات العمر.

ولقد اشتهر «نابليون» بقدرته حين يشد به الإجهاد على الاستسلام لإغفاءة قصيرة فوق حصانه وهو في غمار معاركه الحربية.. وكانت هذه الإغفاءة تعوض جسمه عن قلة ساعات النوم في حياته، حيث اعتاد أن يدخل فراشه في العاشرة مساء.. وأن ينهض من نومه في الرابعة!

أما أنا فلم يكن لي حصان أغفو فوّه خلال معركة الحياة ولا خضت المعارك والحروب التي خاضها نابليون وصنع بها مجده وإنما كانت أهداف في الحياة وما زالت شديدة التواضع، ولا تتجاوز في كثير من الأحيان، الأمل الحسير في حل هذه المعادلة البسيطة، وهي: كيف أستطيع الوفاء بكل واجباتي في العمل والتزاماتي الشخصية والعائلية والإنسانية تجاه من أتعامل معهم، وإشباع هوايتي في القراءة والكتابة، وأفوز في نفس الوقت بست ساعات متصلة من النوم العميق المطمئن؟!!

وحين قرأت الحكمة الإنجليزية الساخرة التي تقول: «إن ست ساعات من النوم كافية للرجل.. وسبعا كافية للمرأة.. وثمانيا لا تكفي المغفل!»، قلت لنفسي: إنني رضيت بنصيب الرجل.. ولكن أين هو في معظم الأيام والليالي؟

وحين قرأت منذ سنوات في «إحياء علوم الدين» للإمام «الغزالي» أن الإمام «الشافعي» - رضي الله عنه - قال ذات يوم: «ما شبت ست عشرة سنة قط لأن الشبع يثقل البدن، ويقسي القلب، ويزيل الفطنة، ويجلب النوم، ويضعف صاحبه عن العبادة».. هتفت صامتا: وأنا كذلك يا سيدي الإمام.. لم أشبع معظم سنوات حياتي من النوم، مع أنني لست من المغرمين بالطعام ولا من المفرطين فيه!

وحين تجاوزت مراحل الدراسة وبدايات العمل التي كانت تلزمني الظروف فيها بمغادرة الفراش في موعد مبكر لألحق بمواعيد لا أستطيع التخلف عنها، تكفلت

ساعة الجسم البيولوجية، مع التقدم في العمر، بتنبه من النوم قبل أن أرتوي منه لألحق بموعد «قطار» أبدي لا مفر لي من ركوبه، ولأؤدي أعمالا وواجبات لا مهرب من أدائها، ولن يتسع لها اليوم إذا استسلمت لمتعة الراحة وحتى حين أسافر إلى الخارج مدعوا من إحدى الجهات أو في مهمة صحفية أو حتى في إجازة، فإن حالي لا يتغير كثيرا، وغالبا ما أجد نفسي أدور في نفس الحلقة المفرغة من الالتزامات والمقابلات والرغبات التي أهفو إلى تحقيقها ولا يتسع الوقت لها.. فأختصر من ساعات نومي وأطيل ساعات صحتي.

وحيث أردت ذات مرة وأنا في رحلة خارجية أن أستسلم لنداء الجسم المجهود وأضرب عرض الحائط بكل الالتزامات لمدة ثلاث ساعات فقط، تكفلت أزمة سوء التفاهم الأزلية بين بني البشر بحرمانى مما تطلعت إليه.

فلقد كنت في زيارة صحفية لدولة «جيبوتي» مند سنوات.. وهي دولة عضو بالجامعة العربية وتقع على ساحل البحر الأحمر في شرق إفريقيا بجوار الصومال، ولا يحسن كثيرون من أبنائها الحديث باللغة العربية، ويتحدث أكثرهم «الفرنسية» نظرا للاحتلال الفرنسي الطويل لبلادهم، و «الصومالية»، نظرا للجذور الصومالية لنسبة كبيرة من مواطنيهم.

وشغلت طوال 5 أو 6 أيام بمقابلات عديدة مع مسؤولين بالحكومة من الصباح الباكر حتى المساء، وبلقاءات مع أفراد الجالية المصرية قليلة العدد هناك في الليل، فمضت الأيام وأنا ألهم للحاق بمقابلاتي والتزاماتي، ورجعت في اليوم السادس إلى فندق «شيراتون» في الثالثة بعد الظهر وأنا خائر القوى من قلة النوم، فتركزت كل أمنياتي في هذه اللحظة في أن أظفر بساعتين أو ثلاث ساعات من النوم أعوض بها قلة النوم وإجهاد الجسم في الأيام الماضية.. فتوجهت إلى موظف الاستقبال الجيبوتي الشاب وطلبت منه - بالعربية المكسرة التي يتكلم بها، وبعض المفردات الفرنسية التي يتحدث بها، وباللغة الإنجليزية التي قال لي إنه يفهمها أفضل من العربية - ألا يزعجني موظف السويتش بتحويل أية مكالمة تليفونية إلى غرفتي حتى السادسة مساء. وابتسم الشاب ابتسامة عريضة وهو يؤكد لي أنه قد فهم المطلوب وسينفذه بدقة.. لكنني لم أطمئن لذلك، وكررت عليه الرجاء مستعينا - إلى جانب اللغة - بالإشارة إلى رأسي وإلى ساعتني بما يفيد بأنني سوف أنام حتى السادسة مساء وأراد هو أن يثبت لي فهمه للمطلوب فرفع سماعة التليفون وتحدث إلى موظفة السويتش بالصومالية، وسمعتة يذكر اسمي ورقم غرفتي، ثم وضع السماعة مبتسما، فشكرته وانصرفت إلى غرفتي، ودخلت فراشي واستغرقت على الفور في نوم ثقيل كالغيبوبة.. فما أن «رحت» فيه حتى نهضت مفزوعا على جرس التليفون.. فرفعت السماعة ساخطا ووجدت مصريا من أبناء الجالية يؤكد على موعد اللقاء معه في المساء.. وأجبت مكالمته باقتضاب ثم اتصلت بموظف الاستقبال معاتبا، فاعتذر عن هذا «السهو»، ووعد بالأيتكرر مرة أخرى، وعدت للنوم، فما أن استسلمت له من جديد حتى فزعت منه مرة ثانية على جرس التليفون، ورفعت السماعة فوجدت القائم بأعمال السفارة المصرية هناك على الطرف الآخر من الخط، ورددت عليه وأنا شبه غائب

عن الوعي، وزهدت في عتاب موظف الاستقبال فرجعت للنوم من جديد.. فلم تمض فترة أخرى حتى نهضت مفزوعا على رنين التليفون المزعج للمرة الثالثة.. وعجزت هذه المرة عن الكلام فمدت يدي إلى السماعة وطوحت بها إلى الأرض ورجعت للنوم.. فما أدري هل طال بي الوقت أم قصر، لكنني تنبهت من نومي على صوت طرقات شديدة مزعجة على باب غرفتي، وتعجبت ممن يكون الطارق على الرغم من لافتة «الرجاء عدم الإزعاج» المعلقة عليه.. ونهضت من فراشي وأنا أتطوح كالكسكاري ولا أكاد أرى ما أمامي، وفتحت الباب فإذا بي أجد موظف الاستقبال نفسه واقفا أمامي يقول لي بلغته العربية العجيبة:

- تليفون تمام مطرح!

فأجبتة بتلقائية: ماذا تقول؟!.. فعاد يكرر: تليفون تمام مطرح!

وفهمت - بالرغم من عدم تنبهي الكامل - أنه يطلب مني بلغت «الهيروغليفية» أن أعيد وضع سماعة التليفون إلى موضعها الصحيح لكي أتلقى مكالمة جديدة!

ولست أدري حتى الآن كيف كبحت جماح رغبة قهرية تملكنتي لحظتها في أن أبطش به.. أو أمسك على الأقل بتلابيبه وأحملة مسؤولية حرمانني من الراحة والنوم الكافي في كل مراحل عمري السابقة.. وليس في هذه اللحظة فقط.. فلقد تمثل أمامي في هذه اللحظة الخاطفة في شكل وحش من وحوش الأساطير الإغريقية سلطته آلهة جبل الأوليمب على إنسان غضبت عليه.. فأمرت هذا الوحش ألا يدعه يستسلم للنوم أبدا لكي تضاعف من عذابه! لكنني تماكنت نفسي في النهاية.. و. تأكدت، من أنه ليس وحشا من هذه الوحوش.

ورجعت إلى فراشي مستسلما لأقداري.. فأعدت سماعة التليفون إلى «تمام مطرح».. وتلقيت المكالمة الخطيرة التي صعد موظف الاستقبال لكي يطلب مني استقبالها.. وكانت من فتاة جيبوتية شابة تتحدث من بهو الفندق.. وعلمت من الموظف أنني صحفي مصري، فأرادت أن تسألني عن مصر وكيفية السفر إليها.. وأفضل الفنادق الرخيصة بها.. وماذا تفعل حين تصل إلى المطار.. وكيف تلتقي بنجوم السينما العربية الذين تحبهم.. خاصة عادل إمام ومحمود عبد العزيز؟! وتخيل حالي وأنا أجيبها عن هذه الأسئلة «الرائقة» وأنا في أشد الضيق والتعب والإجهاد.

وانتهت المكالمة بعد عذاب وعلى وعد مني بأن التقي بها غدا لأعطيها المزيد من التفاصيل عن حياة نجوم السينما المصريين!

ونظرت إلى الساعة فوجدتها لم تتجاوز الرابعة مساء. وينست تماما من النوم.. فتوجهت إلى الحمام وصدى كلمات أغنية فهد بلان القديمة: «أهل الهوى.. مكتوب عليهم قلة الراحة» يتردد بداخلي.

وغادرت الحمام مستردا بعض نشاطي، وبدأت ارتداء ملابس لي لمواصلة «الكفاح» من جديد، وأنا أتساءل عن أسباب هذا الحكم القدري على بعض البشر بقلة الراحة في الحل.. والترحال!!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عفوا.. لقد نسيت

في فيلم أمريكي قديم كان الممثل المطرب الأمريكي « فرانك سيناترا » صاحب الأغنية الرومانسية الشهيرة « غريب في الليل » يؤدي دور شخص مدمن للمراهنة على كل شيء من نتائج المباريات الرياضية إلى أي شيء يجد من يراهنه عليه من معارفه وأصدقائه.. كأول رجل يدخل من هذا الباب، هل سيكون طويلا أم قصيرا؟ أبيض أم أسود؟ إلخ.. وكان يتفاخر بقدرته على تذكر نتائج مباريات الكرة والبيسبول خلال ١٠ سنوات ماضية.

وخلال انهماكه في الحديث عن قوة ذاكرته هذه فاجأه صديقه الذي كان من أكبر ضحاياه بأن وضع يده تحت ذقنه ورفع لأعلى ثم قال له: مائة دولار على لون الكرافت التي ترتديها أنت.. ما هو لونها؟.. وخسر سيناترا الرهان لأنه عجز عن تذكر لون الكرافت التي يرتديها، في نفس اللحظة التي كان يسرد فيها بدقة نتائج مباريات جرت منذ سنوات!

والعالم الألماني اليهودي «ألبرت أينشتاين» الذي تبرع بمخه بعد وفاته لمراكز البحث العلمي لتقوم بتشريحه ومعرفة تكوينه وسر عبقريته، والذي توصل إلى نظرية علمية معقدة كان عدد من يستطيعون فهمها في العالم كله في بعض الأوقات لا يزيد على عشرات، وكان يستطيع أن يجري حسابات رياضية معقدة اعتمادا على ذهنه المتوهج وذاكرته العلمية المذهلة.. هذا العالم نفسه كثيرا ما شكا من ضياع قلم كان بيده منذ لحظات وعجز عن تذكر أين تركه، وفي بعض الأحيان كان يبحث عنه ويستجد بزوجته، فتمد يدها إلى مكتبه أمامه وتقدمه له!

أما «نابليون» فقد كان دقيق الملاحظة وحاد الذاكرة، يتذكر أسماء قواده وضباطه على كثرتهم ويناديهم جميعا بأسمائهم الأولى ويقول إنه ما من قائد منهم إلا ويعتقد في نفسه أنه أحق بالعرش منه!

وفي منفاه بجزيرة «سانت هيلانة» أملى على ثلاثة من رفاقه مذكراته، فذهلوا للتفاصيل الدقيقة التي يتذكرها عن كل مراحل حياته ومعاركه والمؤامرات السياسية التي واجهها، ومع ذلك فلقد كان ينسى أقرب تفاصيل حياته اليومية، وقال أحد مرافقيه مداعبا إنه كان يضع يده في صدره لكي «يجدها» حين يريد خوها من أن ينسى مكانها!

والعرب - كما تقول كتب التاريخ والأدب - كانت ذاكرتهم هي أقوى شيء في روحهم، إذ لم يكن لديهم شيء مدون ومحفوظ قبل الإسلام، وكل ما وصل إلينا من الشعر الجاهلي - ما عدا المعلقات السبع - قد وصل إلينا عبر الذاكرة والرواية والحفاظ، وفي هذا المجال تروي الأمثلة العجيبة على قوة حفظهم، منها ما روته كتب الأدب من أنه كان للوزير الأديب «الصاحب بن عباد» مجلس للشعر لا يسمح بالانضمام إليه إلا لمن حفظ عشرين ألف بيت من شعر العرب، ورغم هذا الشرط القاسي فلقد كان يجلس إلى مائدته في الأعياد والمناسبات ألف رجل ينطبق عليهم هذا الشرط، وإنني أصدق الآن أن كلا منهم كان يحفظ عشرين ألف بيت من

الشعر.. لكنني أجزم بأن أحدا منهم لم يكن يتذكر ماذا تناول من طعام في غدائه قبل ذلك بثلاثة أيام!

إذن، فما هي هذه الذاكرة التي تتسع لعمليات رياضية معقدة أو آلاف الأبيات من الشعر.. ثم تضيق فتعجز عن تذكر موعد مهم.. أو معلومة قرأها منذ أيام؟!!

إن أبسط تعريف للذاكرة هو أنها جهاز في المخ يسجل الصور والأفكار والمعلومات والأشياء المختلفة - كالرائحة والأصوات ويخزنها فيه إلى أن يتم استرجاعها منه عند الحاجة.. وأحيانا بلا إرادة من الإنسان. وعملية التسجيل تتم تلقائيا، فتبدأ الذاكرة عملها الجاد في حياة الإنسان من سن الثامنة وتستمر تتشكل وتنمو حتى سن البلوغ حين ينتظم عمل المخ.. ثم يظل حماس الذاكرة مطردا ومشتعلا حتى سن الثلاثين، وبعدها تبدأ في الانحلال تدريجيا..

وهو ما نسميه نحن بكثرة النسيان وسرعته، لكن يعوض هذا النقص أن الإنسان يكون قد اكتسب في هذه السن نضجا وخبرات قيمة في التنظيم ووضوح الفكرة والقدرة على الترتيب، مما يخفف عنه أثر تراجع ذاكرته وبداية انحلالها.

وبعض المتخصصين في علم تنمية القدرات «يغيظوننا»، بالقول إنه ليست هناك ذاكرة قوية وذاكرة ضعيفة، وإنما هناك ذاكرة تم تدريبها على التذكر والحفظ والتسجيل، وذاكرة أهمل صاحبها كسلا أو خمولا تدريبها فاستراح إلى إدمان النسيان! وفي هذا القول شيء كثير من الحقيقة، لأن الذاكرة كالعضلة من عضلات الإنسان، إذا استخدمتها كثيرا نمت وقويت، وإذا أهملتها ذوت وضعفت. وعملية تخزين وتسجيل المعلومات تتم في المخ، وعملية استرجاعها تتم عن طريقه أيضا، لهذا فلا بد - كما يقولون - من ممارسة أكبر قدر ممكن من التنظيم والانضباط على العقل لكيلا يسترخي ويدمن الكسل والاسترخاء، وأول ما ينصحوننا به لكي تكون لنا ذاكرة قوية هو أن «نقرر» أن نتذكر، لأن إرادة التذكر هي أكبر العوامل المساعدة عليه.

وأن يكون للمخ هدف لأن العقل الذي لا هدف له لا يمكن أن تكون له ذاكرة قوية.

وبقدر أهمية الهدف وكمية الجهد الذي نبذله للوصول إليه يكون نجاحنا في التذكر.. فالطالب لا ينسى مثلا موعد الامتحان لأنه مهم وجوهري في حياته.. وقد ينسى موعدا مع صديق له لأنه ليس جوهريا ولا يؤثر على مجرى حياته، وطالب الوظيفة لا ينسى أبدا موعد الاختبار الذي سيتقدم إليه لأنه شديد الاهتمام به.. والمحب لا ينسى موعد خطيبته التي يحبها مهما كان ذهنه مشغولا بالشواغل لأنها شديدة الأهمية في حياته، وكل إنسان يتذكر ما يريد أن يتذكره بقدر الحماس الذي يحمله للموضوع المطلوب عدم نسيانه.

والباب الملكي للذاكرة السليمة بعد أن تقرر أن تتذكر هو أن تفهم جيدا الشيء الذي سوف تتذكره، إذ ينذر أن ينسى الإنسان ما فهمه واستوعبه جيدا، في حين قد ينسى ما حفظه بلا فهم بعد فترة قصيرة من الزمن. ثم أن تستمر في محاولاتك لإعاش ذاكرتك وعدم تركها لنفسها لتشيخ وتهرم وتستقيم إلى الضعف والوهن

والطريق لإنعاشها يبدأ بشحذ انتباه، الشخص للأمر الذي يعنيه، وحشد أكبر قدر من التركيز الذهني عليه. وهناك تدريبات عديدة يقدمها الخبراء لمن يريد أن يتعلم التركيز، منها تدريب بسيط، هو أن تغمض عينيك وترغم نفسك لمدة 5 دقائق على التفكير بتركيز شديد في موضوع معين وتطرد خلالها من ذهنك كل الأفكار البعيدة عنه، ثم تكرر هذه العملية مرة كل عدة أيام لمدة 3 شهور، ترتفع بعدها درجة تركيزك كثيرا، ومنها أيضا تمرين فاترينة المحل التجاري، وهو أن تنظر بتركيز إلى فاترينة أي محل لمدة 5 دقائق، وحين تعود للبيت تدون في ورقة ما تتذكره من محتوياتها، ثم تقارن في اليوم التالي بين ما رأيت وما تذكرت، وتكرر هذه العملية عدة مرات لمدة شهور فتكتسب قدرات جديدة على الملاحظة والتركيز. وهذا التدريب بالذات تأخذ به معظم الأجهزة البوليسية وأجهزة المخابرات في العالم في تدريب عناصرها على دقة الملاحظة وحفظ الأشكال والوجوه، ومنها أيضا تمرين العد التنازلي بالحساب العقلي بأن تبدأ بالعد في أول يوم تنازليا هكذا، 98-99-100 وفي اليوم التالي تقوم بالعد على الرقم الثاني هكذا: 100-98-96 وفي اليوم التالي تقوم بالعد على الرقم الثالث 100-97-94 ثم على الرقم الرابع والخامس والسادس إلخ.. فتتعض ذاكرتك وتجدد شبابها وتنشط خلايا التفكير والتذكر في عقلك.

ولأن الذاكرة تعتمد على المخ، فإن المخ المجهد لا يكون في أحسن الحالات المناسبة للاستيعاب أو للتذكر. ومن معوقات التذكر أيضا الانفعال والخوف والقلق والعصبية، فالذاكرة نوع من التفكير، ومن الأفضل أن توفر لها الجو المناسب وأن نساعدنا بعوامل مساعدة على أداء مهمتها، كتكرار الشيء الذي لا نريد نسيانه بصوت مسموع أو صامت.. وبكتابته إلى جانب ترديده، وبتنمية الاهتمام لدينا بما نفعل لكيلا ننساه، وبربط الأشياء التي نريد تذكرها بعضها ببعض مما يسهل علينا استرجاعها حين نريد ذلك عن طريق تداعي المعاني عملا بقاعدة «الشيء بالشيء يذكر»، ولا بأس بعد ذلك من تغذية المخ بالأغذية التي ينصحنا بها الأطباء لتغذيته، وهي الأطعمة التي تحتوي على الكالسيوم والفوسفور والمغنسيوم كاللبن والجبن والسمك والبيض - خاصة صفاره - وخبز الدقيق الأسمر والملح الخام والخضراوات والفواكه الطازجة و «جنين القمح» واللوز والجوز والبندق - لمن استطاع إليها سبيلا! إلى جانب فيتامين «د» الذي يصفه الطبيب لمن يحتاج إليه، مع تجنب الأطعمة التي ترهق المخ، كالإفراط في الدهون والإفراط في تناول السكر، وتجنب المهدئات.. إلخ

ولأني أعاني من ذاكرتي منذ زمن طويل فلقد تعرفت على تدريبات الذاكرة هذه منذ وقت مبكر، وكانت بداية اهتمامي بها أي قرأت عن أدينا الكبير الأستاذ «نجيب محفوظ» أنه يبدأ يومه بحفظ وترديد بضعة أبيات من الشعر لكي ينشط بها ذاكرته ويدفع عنها «الوخم»، فأصبحت منذ سنوات أردد وأحفظ من حين إلى آخر بضع آيات من الذكر الحكيم وبضعة أبيات من الشعر القديم وبضع مفردات جديدة من الإنجليزية والفرنسية، وأمارس تدريبات الملاحظة التي أحبها لميل طبيعي في تأمل الوجوه والأشياء. ولم أعرف أهميتها إلا حين قرأت عبارة الروائي الفرنسي

«إميل زولا»، ناصحا أصدقاءه الأدباء: علينا أن نصعد إلى نجوم السماء بسلم الملاحظة الدقيقة!

والحمد لله كثيرا على ما حققته معي تدريبات الذاكرة من نجاح باهر خفف عني الكثير مما كنت أعانيه بسببها. صحيح أنني لم أحفظ ولن أحفظ أبدا - كما قيل عن الشاعر العباسي «أبي نواس» - «شعر 60 امرأة، فما بالك بأشعار الرجال»! ولا حفظت - وهيهات أن أحفظ ألف ألف حديث شريف، كما قيل إن الإمام «أحمد بن حنبل» قد حفظها ثم «نخلها»، أي فرزها واستصفى منها أكثر من 40 ألف حديث ضمنها كتابه «المسند»، لكنى على الناحية الأخرى لم أعد - والحمد لله - أزعج أسرتي بدق الجرس عليها في الفجر لأني قد نسيت مفاتيحي في درج مكتبي بالأهرام سوى ثلاث أو أربع مرات على الأكثر في السنة، كما لم أعد أستيقظ سوى مرتين على الأكثر كل سنة في السادسة أو السابعة صباحا على صوت الجرس في شقتي فأفتح الباب لأجد جارا فاضلا من جيراني يشير لي مبتسما إلى مفاتيحي التي تركتها سهوا في الباب من الخارج!

كما توقفت نهائيا - والشكر لله - عن اللجوء إلى المبيت مضطرا من حين لآخر في فنادق وسط المدينة إلى أن أقوم بتغيير كالون باب الشقة وصنع مفاتيح جديدة لأني نسيت مفاتيحي في مكان ما لا أعرفه كما كنت أفعل كثيرا وأنا أعزب أعيش وحيدا في مسكني.. والفضل بعد الله في هذا «النجاح الباهر»، لتدريبات الذاكرة المفيدة.. ثم «للزواج» الذي شغل المسكن الخالي بمن أستطيع أن «أدق»، عليه الباب حين انسى مفاتيحي!

وهذا كله إنجاز عظيم أرجو ألا تنكره علي، خاصة إذا قارنتني بصديقي الراحل المهندس «عبد الحميد» رحمة الله عليه، وقد كان يسخر من تدريبات الذاكرة التي أحثه عليها، ثم حدث أن عاد صديقنا المشترك الإذاعي القديم الأستاذ «يوسف الحطاب»، من عمل بالخارج غاب فيه عامين والتقينا ودعانا لزيارته في بيته بخلوان في مساء اليوم التالي، وفي اليوم المحدد اتصل بي صديقي عبد الحميد يسألني عن برنامجي هذه الليلة، فأجبتته متعجبا: هل نسيت؟ أسنا على موعد لزيارة «يوسف» في بيته كما اتفقنا أمس؟!.. فاستدرك سريعا وطلب مهلة للاتصال به أولا، وعاد يتصل بي بعد قليل ليؤكد لي أن «يوسف» في انتظارنا، والتقينا في وسط المدينة فوجدته يتجه إلى الدقي بدلا من حلوان، وسألته: هل غير صديقنا مسكنه؟.. فأجابني بالإيجاب، ودخلنا إلى عمارة حديثة وصعدنا إلى الدور الرابع فيها ثم ضغط على جرس باب إحدى الشقق وانفتح الباب، فإذا بي أجدني أمام المرحوم «يوسف عوف»، وليس يوسف الحطاب! ولم أكن في ذلك الوقت أعرف الكاتب الفنان يوسف عوف ولا يعرفني إلا بالاسم - يرحمه الله.

قطار الجنوب

وجدت نفسي في القطار المتجه إلى الجنوب.. فمنذ كم من السنين لم أركب هذا القطار.. ولماذا ركبته ذلك اليوم؟

لا بد أنها عشرون عاما أو تزيد قليلا منذ كنت محررا شابا بقسم التحقيقات الصحفية، أجوب مصر طولا عرضا وانتقل فوق الخريطة من الشمال إلى الجنوب، فلا أدع مدينة بغير أن أزورها.. وأبيت في فنادق الأقاليم الصغيرة.. أو في مراكز الشباب إذا عزت الفنادق.. وأبيت مرة في الصحراء الغربية.. ومرة في قرى النوبة في أعماق الجنوب.. ومرة في قرى الصيادين على شاطئ البحر المتوسط.. ألتقي بنماذج مختلفة من البشر.. وأرى صوراً حقيقية للحياة في بلادي، ثم أرجع إلى الأهرام فأكتب ما جمعت من مادة صحفية وأنشرها.

أصابني تيبس المفاصل الصحفية منذ توليت بعض الأعمال الإشرافية وكففت عن الترحال والتجوال داخل مصر.. وأصبح السفر إلى مدينة أخرى غير القاهرة «مشروعا»، أخطط له وأخلي له مكانا في جدول ارتباطاتي قبلها بفترة مناسبة.

ركبت قطار الجنوب هذا ذات مرة في الستينيات في مهمة صحفية ما زلت أذكرها حتى الآن.. فلقد حدث - وكنا في الستينيات - أن كنت جالسا بقسم التحقيقات الصحفية في الصباح أقرأ الصحف، فوقع نظري فجأة على إعلان صغير في باب الاجتماعيات يشكر فيه صاحبه المسؤولين في وزارتي الداخلية والخارجية أن سمحوا لشقيقه بالعودة لمصر بعد ١٧ عاما احتجز خلالها في أرض - العدو.. وتحت الشكر اسم صاحبه واسم قريته النوبية فقط.. وأثار الإعلان حاستي الصحفية، وقدرت أنه لا بد أن تكون وراءه قصة صحفية تستحق أن تروى. فلم يأت المساء حتى كنت راكبا قطار الجنوب متجها إلى أسوان.. وأمضيت الليلة في القطار حتى بلغت أسوان في الظهيرة.. وركبت منها سيارة الأتوبيس إلى قرى النوبة الجديدة بمركز كوم امبو... وليس في جعبتي سوى اسم ناشر الإعلان واسم قريته.

وبلغت القرية بعد بعض العناء.. ولم يكن صعبا أن أهتدي إلى الشخص الذي أبحث عنه، وأهل القرى الصغيرة يعرفون بعضهم بعضا. وقرب الأصيل كنت أجلس إلى الرجل الذي نشر الإعلان وشقيقه العائد بعد غيبة طويلة.. فإذا بي أجدني أمام قصة إنسانية وصحفية مثيرة.. فالرجل كان طاهيا لأحد الإنجليز المقيمين بمصر ورحل الرجل الإنجليزي عام ١٩٤٧ إلى فلسطين قبل الحرب مصطحبا معه طاهيه المفضل، فلم يمض عام واحد حتى قامت حرب 1948 وظهرت على الخريطة إسرائيل، وتقطعت السبل بين الرجل وبين بلاده. ثم مات مخدمه الإنجليزي أو رجع إلى بلاده، فراح الطاهي النوبي يحاول العودة إلى مصر - بلا جدوى - سنوات، إلى أن نجح في النهاية في السفر إلى قبرص وتوجه للسفارة المصرية هناك طالبا إعادته لمصر.. وأجرت الأجهزة المختصة تحرياتها فلم تجد ما يمنعها من السماح له بالعودة.

ورجع الرجل بعد 17 عاما من الغياب لم يحدث خلالها أي اتصال بينه وبين موطنه، فوجد الأشقاء والأهل والأبناء ما زالوا يأملون في عودته من المجهول الذي مضى إليه منذ زمن طويل، أما زوجته فلقد صبرت على غيابه 15 عاما كاملة ثم استجابت أخيرا لضغط أشقائها عليها وأقامت دعوى طلاق أمام المحكمة بسبب غياب الزوج وحصلت على حكم الطلاق وتزوجت رجلا آخر قبل عودته لبلاده ببضعة شهور فقط. فإن كنت قد نسيت ما نسيت من ذكريات عملي في الصحافة خلال مرحلة الشباب، فإني لم أنس بعد وجه هذا الرجل النوبي الطيب وهو يقول لي باعتزاز وثقة «مدافعا» عن زوجته السابقة: إنه يعلم جيدا أنها لو تركت لنفسها لما طلبت الطلاق منه أبداً مهما طال غيابه، لكنها لم تكن تستطيع أن تخالف إرادة إخوتها الرجال وهم المسؤولون عنها في غيبة الزوج!

فما أحلى الوفاء ولو طال المدى.. وما أغرب بعض مواقف الحياة!

أما الليلة فقد قضيتها فوق دكة خشبية بمركز الشباب بالقرية النوبية وشاركني المبيت فيه - كرما وفضلا وإيناسا - بعض شباب القرية ورحنا نتسامر طول الليل حتى بدأ النوم يتسلل إلى عيني.. فإذا بأحدهم يقول لي عرضا: إن كل شيء جميل في هذه القرية التي انتقلوا إليها حديثا بعد غرق قراهم القديمة تحت مياه بحيرة ناصر بسبب السد العالي، إلا شينا وحدا هو العقارب، فلقد لسعت منذ أيام فلانا.. وفلانا.. وفلانا الخ.. فعافاه الله حين قال ذلك إذ طار النوم على الفور من عيني.. وظللت متنبه الحواس أتأمل السماء الصافية ونجومها اللامعة.. حتى أشرقت الأرض بنور ربها وركبت قطار العودة للقاهرة.

أما رحلتي مع صديقي الأديب «أحمد بهجت» إلى محافظات الجنوب لتغطية الانتخابات العامة في الستينيات فما زالت بعض ذكرياتها الضاحكة تعاودني حتى الآن.. ومازلت أذكر ذلك المرشح الذي انتظرناه في بيته حتى رجع من جولة انتخابية له وقدم لنا الشاي، وأشار بعصبية لمن يحمل الصينية أن يبتعد بها عنه لأنه لا يريد أن يرى شايا ولا قهوة بقية الليل، ولم يكن ممكنا أن يفوتنا السؤال عن أسباب ذلك، فإذا به يحكى لنا أنه زار بيوت بعض الناخبين.. وفي كل بيت منها كانوا يقدمون إليه الشاي أو القهوة تحية له.. ولا بد له أن يشرب إلا اعتبر اعتذاره إهانة لأصحاب البيت أو ترفعا منه عليهم ويفقد بالتالي تأييدهم، فكانت النتيجة أن شرب خلال هذه الجولة 28 كوبا صغيرا من الشاي و12 فنجانا من القهوة!

كما مازلت أذكر أيضا ذلك المرشح الآخر الذي كان بادي الجهل وتلوح عليه ومخايل الغباء، ويصطنع رغم ذلك هيئة الوقار والعلم، فإذا بشيطان المعابثة والتعذيب المعنوي يركبنا فجأة، فننهال عليه بأسئلة عويصة في السياسة والاقتصاد والاشتراكية التي كانت صيحة العهد وقتها، فتكون إجابة المرشح الخطير على كل سؤال من أسئلتنا هي: اتساع شديد في حدقتي العين ثم التلفت يمينا ويسارا في حيرة لطلب النجدة من أحد المرافقين بلا جدوى.. ثم همهمة غير مفهومة بكلمات غير واضحة المعالم والحروف، والعرق يسيل على جبهته، فلا

نرحمه رغم ذلك، وإنما نوجه إليه سؤالاً آخر بعد سؤال ونحن نتظاهر بتدوين إجاباته الخطيرة..

ثم غادرنا بيت الرجل ونحن نتمايل من الضحك المكتوم... ولولا الحياء من بعض ذويه الذين أصروا على توصيلنا إلى محطة القطار لانفجرنا في ضحك مروع صاخب، فلا غفر الله لنا اندفاع الشباب وحماقاتهم... ولا سامحنا في تعذيبنا السادي لهذا الرجل لأكثر من ساعتين.. ومن عجب أنني تتبعت نتائج الانتخابات في هذه الدائرة بالذات - ربما بدافع الإحساس بالذنب تجاه الرجل - فإذا به من الناجحين!

أما قطار الجنوب الذي ركبته بعد كل هذه السنين فلقد ركبته تلبية لدعوة لم أستطع الاعتذار عنها من الدكتور «عبد الوهاب كحيل» رئيس قسم الصحافة بآداب المنيا، للاشتراك في مناقشة رسالة دكتوراه أشرف على إعدادها في قسم الصحافة بآداب سوهاج قبل انتقاله للمنيا.

سألت نفسي مرارا بعد أن قبلت الدعوة: لماذا قبلتها مع ما تعنيه لي من أعباء إضافية وأنا المرهق بالعمل والارتباطات المختلفة؟! فلم أجد جوابا مقتعا لهذا السؤال.

هل هو الحنين للعودة إلى أجواء الجامعة التي انقطعت عنها منذ تخرجي في قسم الصحافة بكلية الآداب بجامعة القاهرة؟! أم هي الرغبة في أداء مهمة علمية أكاديمية أمارسها لأول مرة.. وأستشعر فيها «بهجة» الممارسة الأولى لخبرة جديدة.. وهي «بهجة» لا تتوفر كثيرا الآن لمن خبر الأشياء وطال العهد به معها مثلي؟!!

لابد أنه هذا وذلك معا فلقد انقطعت منذ سنوات طويلة عن الحياة الجامعية ولم يعد يربطني بها سوى ذكرياتها القديمة.. وسوى بعض زملاء الدفعة الذين التقى بهم على فترات متباعدة الآن في المحافل والمناسبات العامة، وقد أصبح معظمهم نجوما في دنيا الصحافة والتلفزيون والإعلام.

ففي بداية تخرجنا كانت الصلة بيننا قوية.. وكنا نلتقي كثيرا في نقابة الصحفيين وفي الحفلات العامة والمناسبات المختلفة فنلتف على اللقاء.. ونتبادل الذكريات والسؤال عن الأحوال وزملاء الدفعة.

وكان الجميع يعترفون بانتمائهم جميعا إلى هذه الدفعة، وينتهزون الفرص خلال الحفلات للإشارة إلى هذه الزمالة أمام شركاء الحياة.

ثم مضت السنوات في طريقها المعهود، فلاحظت أن «الزملاء» وحدهم هم الذين ما زالوا «يعترفون» بالحديث عن الانتماء لهذه الدفعة القديمة، وأن الزميلات رغم حرارة اللقاء معنا قد بدأن يتجنبن الإشارة أمام أزواجهن إلى أننا أبناء دفعة واحدة!

وأوغل قطار العمر في طريقه أكثر وأكثر، فتسلل الشعر الأبيض إلى الرؤوس واختفى «الاعتزاز» نهائيا بالانتماء لنفس الدفعة من جانب الزميلات وحل محله «التكتم»، فأذكر أنني قد التقيت منذ عامين بإحدى هؤلاء الزميلات العزيزات في

حفل بفندق سميراميس وجمعتنا مائدة واحدة مع زوجها وبعض الشخصيات الإعلامية المعروفة، وأمستك الزميلة اللامعة بزمَام الحديث فتحدثت عن كل شيء بخفة ظلها ولباقتها المعهودة، إلا أننا من أبناء دفعة واحدة!!

فأبي «شيطان» أوحى لي بأن أشير فجأة إلى عام تخرجي في الجامعة متعمداً عدم الإشارة إلى زمالتي لها في نفس الدفعة وأنا أرمقها في «تهديد» خفي؟ وأي جراءة نفسية عجيبة أجابتنى بها زميلتي هذه وهي تقول لي بخبث أنثوي ظريف متظاهرة بالدهشة: هل أنت خريج قديم إلى هذا الحد؟

وأي عجب بعد ذلك في أن أوصل طوال السهرة «ابتزازها»، بهذا السر المكتوم بلا حياء.. فأكلفها بتقريب هذا الطبق أو ذاك من أطباق الطعام.. أو بملء كوب من الماء من الزجاجاة، فتستجيب لما أطلبه في حفاوة وهي تقول لي بصوت «تأمري» خفيض: طلباتك أوامر!

جرى قطار العمر كما جرى ذلك القطار الذي ركبته منذ أيام مع الدكتور كحيل والدكتور «إبراهيم المسلمي» رئيس قسم الصحافة بآداب الزقازيق في طريقنا إلى سوهاج لمناقشة رسالة الدكتوراه المقدمة من الباحثة «رجاء نور» المدرس المساعد بقسم الصحافة بكلية الآداب هناك، ووصلنا إلى سوهاج في الحادية عشرة مساءً بعد 7 ساعات من السفر.. ووجدنا رئيس قسم الصحافة بآداب سوهاج الدكتور «فوزي عبد الغني» وزملاءه من مدرسي القسم الشباب والباحثة في انتظارنا.. وأمضيت الليلة مع عضوي لجنة المناقشة في استراحة أساتذة الجامعة.. وفي الصباح توجهنا للقاء عميد الكلية الدكتور «أحمد الطوخي» الذي استقبلنا بحفاوة، وقدم لنا القهوة التي كنت في أشد الحاجة إليها، ثم حانت اللحظة المنتظرة.. وانتقلنا إلى قاعة المناقشة.. وقدم لي الدكتور كحيل قبل أن أدخلها روبا جامعيًا مهيبًا لأرتديه عملاً بالتقاليد الجامعية العريقة.. ثم دخلنا القاعة وجلسنا إلى المنصة.. وافتتح الدكتور كحيل الجلسة بدعوة الباحثة إلى تقديم ملخص لرسالتها الجامعية.. ثم دعاني بعدها لمناقشتها، فناقشتها فيما عن لي من ملاحظات على رسالتها.. ولم يغب عني في ذلك تقديري لكفاحها لإعداد هذه الرسالة وهي الزوجة والأم لخمس أطفال صغار، وكانت مناقشتي لها هادئة ومتعاطفة، وتركزت على مضمون الرسالة التي أعدتها عن تناول الصحافة لقضايا الشباب وبخاصة قضيتي البطالة والاحتراف، ثم جاء دور الدكتور إبراهيم المسلمي في المناقشة، فكانت مناقشته لها - بوصفه أستاذًا جامعيًا - أكاديمية وأكثر تركيزًا على أدوات البحث، لكنها كانت أيضًا منصفة وليست قاسية، ولربما دفعني إلى تجنب القسوة في مناقشة الرسالة ما ترسخ في ذاكرتي من ذكرى رسالة للماجستير في الأدب حضرتها خلال دراستي الجامعية، ورأيت فيها الباحث وهو يتصعب عرقًا تحت وطأة مناقشة أحد أعضاء اللجنة له، حتى أشفقت عليه على البعد ودعوت له بالنجاة من هذه المحنة. ولم يرطب قلبي عليه ولم أكن أعرفه شخصيًا سوى كلمات المشرفة على رسالته ورئيس لجنة المناقشة الراحلة العظيمة الدكتورة «سهير القلماوي» التي شعرت بقسوة زميلها على الباحث، فرفعت من معنوياته وأشادت بجهده في إعداد الرسالة، ولم أغادر القاعة يومها

إلا بعد أن أصدرت اللجنة توصيتها بمنحه درجة الماجستير بدرجة الامتياز، فاندفعت في تصفيق حار كأن الباحث من أصدقائي أو أقاربي!

والحق أن التعاطف مع الباحثة كان ملحوظا بين كل أعضاء لجنة المناقشة. وحين اختلينا بأنفسنا لتقرير الدرجة التي توصي اللجنة بمنحها للباحثة لم تستغرق المناقشة دقائق أجمعنا خلالها على منحها مرتبة الشرف الأولى، ورجعت اللجنة إلى القاعة لتعلن قرارها، ولفت الدكتور كحيل نظري إلى الوقوف أثناء قراءة القرار، ووجدت الحضور جميعا واقفين، أما الباحثة فقد وقفت محتبسة الأنفاس تنتظر قرار اللجنة الذي يتوقف عليه الكثير في مسيرتها الجامعية.. وبدأ رئيس اللجنة قراءة تقريرها عن الرسالة.. ثم جاءت اللحظة الحاسمة في حياة هذه الباحثة ورئيس اللجنة يقول: وتوصي اللجنة بمنحها درجة الدكتوراه. ثم توقف هينهة استرقت النظر خلالها إلى وجه الباحثة، فرأيتها شاحبة واجفة، ثم واصل رئيس اللجنة حديثه: مع مرتبة الشرف الأولى! فإذا بالباحثة تغمض عينيها في تأثر شديد، وانفجرت القاعة بالتصفيق والهتاف والزغاريد، وتقدمت سيدة صعيدية عجوز من الباحثة في انفعال شديد وهي تزغرد زغرودة كاللولوة تثير الشجن وتحضنها بعنف وهي تنتم: بنتي.. بنتي!

ثم تواصل زغرودها التي تحرك الشجون أكثر مما تثير الابتهاج، وانهالت التهاني على الباحثة المجتهدة.. وصعدت إلينا لتشكر أعضاء اللجنة وغادرت القاعة وسط جو مشحون بالانفعال والتأثر والابتهاج.

وكانت تجربة جديدة في حياتي وحافلة بعطر الذكريات الجامعية ومشحونة بأريج الأجواء الجامعية التي باعدت بيني وبينها الحياة العملية، فإذا كنت قد اقتطعت من جدولي المزدحم يومين سافرت خلالهما إلى هذه المحافظة البعيدة لأودي واجبا أكاديميا دعاني إليه زميلي القديم في الصحافة العملية قبل أن يتخذ لنفسه الطريق الجامعي الدكتور كحيل، وإذا كنت قد سهرت حتى الصباح بضعة ليال لأقرأ الرسالة وأكتب ملاحظاتي عليها على حساب عملي وواجباتي الصحفية، فلقد عوضتني لحظة إعلان القرار بانفعالاتها المشحونة.. وبمشهد الأم الصعيدية الطيبة وهي تحتضن ابنتها الباحثة في تأثر وانفعال، عن كل ما بذلت من جهد أو تحملت من عناء في السفر وقلة النوم.

أما رحلة العودة التي استغرقت ثماني ساعات فيكفيني من بهجتها أنني قد أمضيتها في صحبة عدد من أساتذة الكلية والأدباء الظرفاء..

فشكرا لرفاق الرحلة المتعبة الممتعة وسُقيا لأيام الحياة الجامعية بذكرياتها القديمة ورموزها الجميلة.

البحث عن سمكة

عندما اقترب شهر رمضان من نهايته، بدأت كعادتي كل سنة أفكر في المكان الذي سأقضي فيه إجازة عيد الفطر. لست من هواة الطعام بصفة عامة، ومع ذلك فإن شهر رمضان يجهدني كل سنة وأحتاج بعده إلى إجازة قصيرة.. لا يجهدني الإمساك عن الطعام والشراب خلال ساعات الصوم، وإنما ضيق الوقت المخصص للعمل في رمضان، وهو دائما يبدأ بعد الإفطار بساعتين وينتهي قبيل أذان الفجر، ولا بد من إنهاء كل واجبات العمل خلاله.. نهار رمضان لا يصلح عندي لأداء أي عمل جاد أو يتطلب تركيزا ذهنيا.. فحتى الصلاة قد يتشتت ذهني خلالها رغما عني ويشرد، وقد أعيد بعض ركعاتها لشكي في شرودي خلالها، ناهيك عن شكي الدائم في عدد ما صليت من ركعات وهل هن اثنتان أم ثلاث؟!!

ولأن الرأي الأفضل في مثل هذه الحالة هو أن تفترض النقص وليس الزيادة، فكثيرا ما أدت صلاة العصر بالذات من خمس أو ست أو سبع ركعات أحيانا تحريا لعدم النقصان!

وكثيرا أيضا ما حمدت الله لأني أفعل ذلك بسبب شرود الذهن من تأثير نقص السكر والنيكوتين والكافيين في الدم وليس «لأسباب درامية» أخرى!.. «فصديقي» المعذب «قيس بن الملوح» كان يواجه هذا الموقف كثيرا خلال صلاته، وكثيرا ما أتذكره في مثل هذه الحالة، وأسترجع بيت الشعر الذي قاله معبرا عنها

أصليّ فما أدري إذا ذكرتها اثنتين صليت الضحى أم ثمانيا!

وكثيرا أيضا ما أسترجع ما قاله أمير الشعراء «أحمد شوقي» على لسانه:

ولقد أقول لمن يبشرني بالخذ ما أنا داخل وحدي

لو أن ليلى في النعيم معي أو في الجحيم تساويا عندي

على أية حال فلقد انتهى شهر الصوم.. فلم أقل مع أمير الشعراء «رمضان ولى هاتها يا ساقى»!.. وإنما رتبت لإجازة قصيرة خارج القاهرة بعيدا عن العمل!

واستجبت لنداء المغامرة وحب الاستكشاف فقررت أن أقضي إجازتي في قرية سياحية جديدة قيل لي إنها تتميز بطابع مختلف، فرحبت بالعودة إلى الطبيعة، وسعدت بفكرة الإقامة في قرية مقامة فوق جزيرة في النيل في ريف المنوفية، فأضيت ليلة العيد في إتمام استعدادات الرحلة وهي دائما البحث عن صنارة جديدة ومستلزماتها لمحاولة ممارسة هواية صيد السمك، واختيار كتابين أو ثلاثة لقراءتها في الإجازة، وشراء فيلم للكاميرا واختيار وسيلة التسلية البريئة التي سنقطع بها الوقت خلالها كالتأولة أو الشطرنج.

ترقيت قليلاً في هواية صيد السمك فاشتريت صنارة حديثة مما يستعمله الهواة المخضرمون، وتذكرت وأنا مشغول مع ابني في إعدادها حيرة أديبنا الكبير

الراحل «توفيق الحكيم» في شيخوخته ولومه نفسه لأنه لم يتعلم أية لعبة من ألعاب التسلية ليروح بها عن نفسه، وكيف وجد أن أنسب هواية لطبيعته هي صيد السمك لأنها لا تتطلب منه سوى أن يلقي الصنارة في الماء ثم يستسلم لشروذ ذهنه الدائم كيفما يشاء على عكس الهوايات الأخرى، فحاول ممارستها، واكتشف بعد محاولات عديدة أنه لا يصلح لها أيضا لأنه يلقي الصنارة ثم يذهل عنها بالساعات، فإذا تذكرها وجذب الخيط وجد السمك قد التهم «الطعم» منذ وقت طويل وتجمع أمامه ينتظر المزيد من هذا الصياد الطيب الذي لا خطر منه!

تذكرت ذلك وابتسمت له.. كما تذكرت أيضا أنني لم أرجع بسمكة واحدة من رحلتي خلال السنوات الثلاث الأخيرة، ليس لنقص المهارة - لا سمح الله - وإنما لسوء اختيار توقيت ممارسة الهواية، فأنا أختار التوقيت حسب إجازتي من العمل وليس وفقا لأحوال السمك ومواسم الصيد، وكثيرا ما أمضيت الساعات ممسكا بالصنارة بلا حراك على شاطئ بحيرة قارون بالفيوم، أو بحيرة التمساح بالإسماعيلية، حتى يشفق عليّ أحد الهواة الخبراء ويسألني مستنكرا: ماذا تفعل هنا في عز الشمس والسمك صائم في مثل هذا الوقت من السنة ولا يمكن صيده بالصنارة وإنما بشباك الصيد!؟

فأفوز من الغنيمة بالإياب وبعض سمرة الشمس الملتهبة وهواء البحر المنعش!

وبهذا الدافع الاضطراري توجهت مع أسرتي صباح أول أيام عيد الفطر إلى القرية السياحية الموعودة ممنيا نفسي بإجازة هادئة بين أحضان الطبيعة، فما أن اقتربنا منها حتى خيل إلى أنني قد ضللت الطريق إليها، فما رأيته حين وصلت إليها ليس مدخل قرية سياحية ترقد في هدوء فوق جزيرة في قلب النيل، وإنما مدخل مدينة ملاء أو مدخل «مولد» صاحب كمولد السيدة زينب!.. مئات بل ألوف من الكبار والصغار يدخلون ويخرجون، ومكبرات صوت تلعلع في أجواء المكان، ومقاعد دوارة تدور بركابها في الهواء فيصرخون ويهللون، فتساءلت متشكيا: هل هذه هي «الطبيعة» التي أريد الرجوع إليها!؟

حسنت الشك بسؤال موظف البوابة، فإذا بها هي نفس القرية التي نصحني بها صديق وإذا به يدعوني للدخول مع الأسرة ليقودنا إلى الشاليه المحجوز لنا، فدخلنا مرتبكين، وسرنا - وسط زحام صغار وكبار يرتدون ملابس العيد - إلى الشاليه المطل على النيل، ثم استأذنا الموظف في العودة لعمله، فعدت مجلسا للعائلة لتداول الأمر واتخاذ القرار، هل نبقى وقد تبين لنا أن المكان يتوافر به كل شيء نحتاج إليه إلا الهدوء، أم نرجع من حيث أتينا؟ واعتصمت كعادتي في مثل هذه الظروف بمبادئ الديموقراطية التي قال عنها رئيس الوزراء البريطاني العتيد «ونستون تشرشل» إنها أضعف نظام «للحكم»، ورغم ذلك فليس هناك نظام أفضل منه!.. وتركت لأسرتي الاختيار فانقسمت الآراء بين مطالب بالبقاء واحتمال الضجيج، ومطالب بالرحيل فورا، وملت برأيي إلى الجانب المطالب بالرحيل، خاصة أن حقائبنا لاتزال بالسيارة، فما أن هممنا بالتحرك لمغادرة الشاليه حتى جاءنا صاحب القرية السياحية مرحبا ومحتفيا.. ودعاني الرجل لمصاحبتة في جولة بمرافق القرية، فخرجت معه واستمعت له وهو يحكي لي

بحماس عن فكرة إنشائها واختيار الطابع الريفي لها.. وأنا أفكر في الحرج الذي سأواجه حين أعلنه بانسحابنا منها بعد قليل. وواصل الرجل حديثه بحرارة، فأيقنت في داخلي بأنني لن أجرو على مصارحته بما كنا قد نوينا، واستجبت لحماسة وهنأته على مشروعه المفيد، وتمنيت له كل التوفيق فيه، وشكرت له مجاملاته الكريمة، وافترقنا على موعد في المساء، فرجعت إلى أفراد أسرتي وبادرتهم بالتساؤل مستنكرا ماذا تنتظرون لإحضار الحقائب؟.. فضحكوا وقد أيقنوا منذ جاءنا صاحب القرية مرحبا بأنني سأعدل عن قرار الرحيل مجاملة له.

وجاءت الحقائب وبدلنا ملابسنا، وبدأت إجازتنا في هذا المكان الصاخب، وبدأ «جهادنا» أنا وابني لمحاولة اقتناص سمكة واحدة ترفع من معنوياتنا لأن «التوقيت» مناسب هذه المرة.. لكن المكان هو الذي غير مناسب.. فضجيج الأغاني ومكبرات الصوت كفيل بإبعاد السمك عن مرمى الصنارة لعدة أميال!

وبعد ساعة لم تهتز خلالها «غمازة» الصنارة هزة واحدة، رجعت إلى الشاليه وأخرجت مجموعة الكتب التي أحضرتها معي.

كنت ليلة السفر قد مررت بمكتبة أحد الناشرين الذين أتعامل معهم لإحضار نسخ من كتبي الجديدة، فرافقتي الرجل في جولة بين أرجاء مكتبته وأهداني بعض كتبها، وقبل أن أغادره مودعا مد لي يده بكتاب صغير قال لي عنه إنه كتاب جيد بالرغم من عنوانه، وأن مؤلفه زميل شاب لي بالأهرام، فأخذته وانصرفت، وقرأت الاسم فلم أعرف صاحبه، وقدرت أنه لا بد واحد من جيل الشباب الذي دخل الأهرام وإصداراته منذ وقت قريب.

وجدت هذا الكتاب بين يدي فبدأت قراءته متوجسا من عنوانه التجاري، فإذا بي أنجذب بقوة لا إرادية للاستغراق فيه، وإذا بي أكتشف بين سطوره قلم كاتب جديد واعد له أسلوب وله عبارة وفكر أيضا!

يا إلهي، من هذا الشاب؟.. وما هذه الجرأة النفسية والفنية التي يكتب بها؟. إنه يحكي في كتابه عن بلده في أعماق محافظة سوهاج، من خلال رحلة عاد فيها إليها من القاهرة الصاخبة، ويقدم من خلال الرحلة عملا فنيا عجيبا يمزج بين السيرة الذاتية وبين عرض للحياة الحقيقية في أعماق الصعيد وما يتحرك فوق أرضه من شخصيات ونماذج بشرية تدور في أذهانها أفكار وأحلام وتطلعات تختلف كثيرا - للأسف - عما نتصور أننا نعرفه عن صعيد مصر.. فتوالت أمام مخيلتي وأنا أقرأ هذا الكتاب الصغير شخصيات ونماذج بشرية تستحق التأمل ذكرتني بأجواء كتابات «يحيي حقي» عن الصعيد في «دماء وطين» و «صح النوم» و «البوسطجي» و «خليها على الله».

وتوقفت عند شخصية الشيخ المتنور «عطية» إمام المسجد في الستينيات الذي كان يحب «عبد الناصر» ويكره إسرائيل ويسمى كلبه الصغير «جونسون» ازدراء لمواقف الرئيس الأمريكي الأسبق «ليندون جونسون» المنحازة لإسرائيل، والذي كان يلتف حوله المؤلف وزملاؤه من طلبة المدرسة الثانوية بالمسجد في درس العصر فإذا به يبدأه يوم الجمعة بأن يقرأ عليهم مقال «محمد

حسنين هيكل» الأسبوعي في الأهرام «بصراحة» ويناقشهم فيه «ويفتح عيوننا» وآذاننا على آفاق أوسع بكثير من حدود الترفة والنخلة والجاموسة والفأس!

ثم تتابعت الشخصيات العجيبة بعد ذلك أمامي من «عبد السلام» الطالب الفاشل الذي نشأ يتيما ولا يكف عن تذكير نفسه والآخرين بهذه الحقيقة ليبرر بها كل تصرفاته وفشله وضياعه «أصلك يتيم»، والذي لحق بالكاد مقعدا في مدرسة الصنائع التي يرفع طلبتها كما يقول المؤلف شعار «رايح فين يا صايح رايح مدرسة الصنائع»!. ولا يحب العمل.. ويمشي كالزراف والمديّة والمشط لا يفارقان جيبه، ويأكل كثيرا ويحسد الممثلين على شهرتهم وثرانهم، ولا يخضع لأي فكرة سوى «فكرة ألا يخضع لأي فكرة»!

إلى الجد «سالم» الذي ناهز التسعين وكان عينا من أعيان بلدة المؤلف وزير نساء قديما وروحا ساخرة لاذعة، فأوهنه المشيب وأضعف بصره حتى لا يكاد يعرف المؤلف حين يحييه وهو جالس على الدكة في ساحة القرية يراهن حفيده على من يكون هداف الدوري هذا العام: «أحمد الكأس» أم «جمال عبد الحميد»!

إلى «القليني» المزارع البخيل الذي ينبذه إخوته ويتأمرون عليه لحرمانه من نصيبه من محصول البلح، والذي لا يرتدي جلبابا ولا يستحم ولا يأكل على طبلية ولا ينام على سرير، ويطرده زوجته «لإسرافها» ولا يكف عن شكوى إخوته إلى نقطة الشرطة حتى ليذهب في إحدى جولات الصراع بينه وبينهم إلى ضابط النقطة ليروي له عن واقعة كان شاهد الإثبات الوحيد فيها هو جاموسته، فيقول للضابط بتلقائية:

- أنا كنت واقف هنا يا بيه.. والجاموسة واقفة زي حضرتك!

إلى «توفيق» الذي يتلطف على إنجاب الولد ويهدد زوجته بالطلاق إذا هي أنجبت بنتا، فيقع المحذور وتنجب بنتا بالفعل ولا تجرؤ على احتمال الطلاق، فتلفها في قطعة قماش وتسقطها من السور الذي يفصل البيت عن مياه الفيضان المحيطة به، فتطويها المياه وتحملها إلى قدرها المقدور، ثم تحمل الزوجة مرة أخرى وتنجب ولدا هذه المرة وينطلق الرصاص ابتهاجا وافتخارا، ويكبر الولد ويصبح في الخامسة من عمره، ثم يفيض النيل، وفي نفس الموعد ونفس المكان يميل الولد على السور الذي يفصل بين البيت ومياه الفيضان ومعه كوز ليملاه منها فيسقط فيها كأنما قد نادته جنية.. ويغرق حيث ألقيت أخته من قبل حي!.. فيذعن توفيق لمشينة ربه في النهاية وينجب بنتين لا يندهما، وتموت زوجته فيتزوج أخرى فتنجب له ست بنات!

ويهون الأمر على نفسه قائلا: وماله؟!.. 8 بنات يعني 4 أولاد!

إلى «أبو غازي» ذلك الفحل الهائل الذي تزوج ثلاث مرات واختتم حياته بالزواج بـ «هنومة» الفتاة الصغيرة وهو في الثمانين من عمره، حيث سخر منه أحد أبنائه الكبار وغمز به بأنه لن يستطيع الصمود لشبابها وجمالها، فإذا به يكذب ظنون ابنه وينجب منها «محمدا»، وينطلق الرصاص ابتهاجا بانتصار الشيخوخة

على تحديات الشباب، ثم يستسلم للشلل في أواخر أيامه ويصبح مثل «مقطف جله تنقله هنومة من الشمس إلى الظل ومن الظل إلى الفراش وقلبها فضاء ممتد لا قمر فيه ولا نجوم»!

ناهيك عما تعكسه هذه النماذج من ملامح خافية على كثيرين منا للشخصية الصعيدية وأحلامها وأفكارها وهواجسها، ومنها هذه اللمحة التي يرسمها المؤلف:

«شيء ما يجعل الصعيدى طموحا إلى ما هو أكثر من القمح والقطن والثوم والبقول والبصل والذرة، شيء شبيه بالمس يجعله في انتظار معجزة تخرج من بطن الأرض فتغير حياته بيني بيتا كسراي الباشا بدلا من الزريبة التي يسكن فيها مع الغنم والمعيز.. يلبس الحرير والعباءات ذات القفاطين المذهبة، ويأكل الضاني والملطى - أي الديك الرومي - ويخلع المركوب ويلبس الأجلسية إلخ».

ويجد المؤلف تفسيراً لبعض سمات هذه الشخصية الصعيدية وبعض عاداتها المتأصلة كالثأر وحرمان الأنثى من ميراث أبيها، والنفور من ذكر اسمها في مجلس الرجال، في جذور تاريخية قديمة أفرد لها فصلا كاملا في نهاية كتابه، لكنه تفسير يحتمل الجدل والنقاش لجرأته الفكرية الملحوظة!

لقد «أنقذ»، هذا الكتاب الصغير بعنوان «مرة واحد صعيدى» لمؤلفه الشاب الذي لا أعرفه «محمود الكردوسى» إجازتي من الفشل، وشغلني عن ضجيج مكبرات الصوت بالقريبة السياحية «الهادئة»، كما عوضني أيضا عن العودة الخائبة من شاطئ النهر بغير سمكة واحدة بسبب «الضجيج» هذه المرة - من فضلك - وليس بسبب نقص المهارة!



من المفكرة الزرقاء

الموضوعات الخاصة بالمرأة والحب والزواج هي موضوعات اجتماعية وإنسانية بالدرجة الأولى، سواء أكانت هذه الموضوعات تتناول العلاقات العاطفية بين الرجل والمرأة داخل نطاق الأسرة أو خارج هذا النطاق.

ومن المعروف عن الأستاذ الكبير عبد الوهاب مطاوع أنه صاحب أسلوب أدبي إنساني رفيع المستوى، يتمثل في عشرات الكتب التي أصدرها والتي الإنسانية في الأهرام كل أسبوع وجدت قبولاً عظيماً من جانب القراء في مصر وفي كافة أنحاء الوطن العربي بكل دوله وشعوبه.

وتحت عنوان «من المفكرة الزرقاء»، كتب الأستاذ المؤلف مئات من المقالات الأسبوعية التي نشرتها تباعاً مجلة «زهرة الخليج»، التي تصدر في أبي ظبي على مدى أكثر من عشر سنوات متتالية وقد تناولت هذه المقالات مجموعة كبيرة من القصص والصور الأدبية التي تدور حول محور رئيسي هو: «المرأة.. والحب والزواج».

«الناشر»



عبد الوهاب مطاوع

- مدير تحرير جريدة الأهرام ورئيس تحرير مجلة الشباب.
- حصل على جائزة مؤسسة علي أمين ومصطفى أمين الصحفية عام ١٩٩٢ كأحسن كاتب صحفي يكتب في المسائل الإنسانية.
- يكتب باب «بريد الجمعة الإنساني» في الأهرام كل أسبوع بانتظام منذ عام ١٩٨٢ ويشرف على باب بريد الأهرام اليومي بصحيفة الأهرام.
- صدر له 40 كتابا، يتضمن بعضها نماذج مختارة من قصص بريد الجمعة الإنسانية وردوده عليها وصورا أدبية ومقالات في أدب الرحلات.
- له ثلاث مجموعات قصصية هي: «أماكن في القلب» و «لا تنسني»، و «الحب فوق البلاط».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تم الكتاب بحمد الله)

متميزون للكتب النصية



الفهرس:

[مقدمة الكتاب..](#)

[قطار السعادة](#)

[أجر وراء سعادتك](#)

[الحب بدعوة ملكية](#)

[غريبة يا دنيا](#)

[عفوا.. انني ألاحظك](#)

[يا حبيب المخ](#)

[امرأة.. على المعاش](#)

[رسائل اب الى ابنه \[1\]](#)

[رسائل أب لابنه \[٢\]](#)

[دفاع في الوقت الضائع](#)

[البنات لازم «تتجوز»](#)

[تليفون.. تمام.. مطرح](#)

[عفوا.. لقد نسيت](#)

[قطار الجنوب](#)

[البحث عن سمكة](#)

[من المفكرة الزرقاء](#)

[عبد الوهاب مطاوع](#)

[الفهرس:](#)